نظرات في الثقافة



تأليف هاري شابيرو
ترجمة الدكتور محمد على العريان
تقديم الدكتور عبد الرحمن زكى

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد
أنثروبولوجي

نَظَرَاتٌ فِي الثَّقَافَة

نشر هـــذا الـكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

يناير سنة ١٩٦١

نظرات في الثقافة

تأليف

هاري شاپيرو

ترجمة

الدكتور محمد علي العريان

أستاذ التربية بكلية المعلمين بالقاهرة

تصدير

الدكتور عبد الرحمن زكي

أستاذ الآثار الإسلامية في كلية الآداب
جامعة بغداد (سابقاً)

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف

هارى ل . شاپيرو : رئيس قسم الأنثرو بولوجيا فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى وأستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا .

ولد فى مدينة بوسطن ونال درجة الليسانس والماجستير والدكتوراه من جامعة هارڤارد . وهو مؤلف كتاب « ميراث السفينة باونتى » الذى نال نجاحا كبيرا منذ أن نشر سنة ١٩٣٦ ، وكتاب « الهجرة والبيئة » الذى نشر سنة ١٩٣٩ ، كما أنه يوالى عددا كبيرا من المجلات العلمية ببحوثه ومقالاته القيمة .

المترجم

الدكتور محمد على العريان : حصل على ليسانس الآداب ، قسم اللغة الإنجليزية من كلية الآداب، جامعة القاهرة، مع درجة الامتياز سنة ١٩٣٩، ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين بالقاهرة مع مرتبة الشرف سنة ١٩٤٠ . درس فى أكسفورد واكستر بانجلترا وحصل على دبلوم اللغة الانجليزية ، ثم حصل على درجة الماجستير فى التربية وعلم النفس من

جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٠ ، ودرجة الدكتوراه فى التربية من جامعة كولومبا سنة ١٩٥٢ ومنحته هذه الجامعة ميدالية الخدمة العلمية الممتازة سنة ١٩٥٤ . شغل عدة مناصب هامة فعمل مديرا لمكتب الاستعلامات السياحية بنيويورك ، ثم عمل بقسم الإذاعة والترجمة بمقر الأمم المتحدة بنيويورك ، كذلك عمل بدار التحرير للطبع والنشر . وهو يعمل الآن أستاذا للتربية بكلية المعلمين بالقاهرة . ترجم كتاب « النفس المنبثقة » الذى نشرته المؤسسة .

صاحب التصدير

الدكتور عبد الرحمن زكى : أوفدته وزارة الحربية فى بعثة إلى أوربا لدراسة فنون المتاحف وأنظمتها سنة ١٩٣٨ وذلك حينما قرر إنشاء المتحف الحربى . عين مديرا للمتحف الحربى سنة ١٩٣٨ وظل يشغل المتحف حتى أخريات سنة ١٩٥٢ . عمل رئيسا لتحرير مجلة الجيش بين سنتى ١٩٤١ و ١٩٥٢ ، كما تولى منصب مدير إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة فيما بين سنتى ١٩٤١ و ١٩٤٤ . حصل على دكتوراه فى الآداب (الآثار الإسلامية) سنة ١٩٥٥ ، وعين مديراً لمكتبة الجيش سنة ١٩٥٥ لإعادة تنظيمها وظل يعمل بها إلى سنة ١٩٥٨ . شغل منصب أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد فيما بين سنتى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . عضو فى المجمع المصرى والجمعية التاريخية والجغرافية ومجمع الثقافة العلمى . له عدة مؤلفات من بينها « القاهرة » و « الشرق

الأوسط » و «المسلمون فى العالم اليوم» كما نشرت له عدة بحوث ومقالات فى المجلات العلمية العربية والأجنبية .

مصمم الغلاف

محيي الدين وهبه ـ حصل على بكالوريوس الفنون الجميلة سنة ١٩٥٩ بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف وكان ترتيبه الأول . فاز التصميم الذى وضعه لشعار المجلس الأعلى لرعاية الشباب ، وكان لا يزال طالبا بالسنة الأولى فى الكلية . حصل على جائزة الامتياز لأوائل الشهادات فى عيد العلم سنة ١٩٥٩ ـ اختير مدرسا مساعداً فى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية.

محتويات الكتاب

تصدير

الثقافة فى علم دراسة الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) هى أسلوب الحياة فى المجتمع ، وهى التى جعلت المجتمع البشرى يمتاز عن الجماعات الحيوانية منذ بدأ الإنسان حياته على هذا الكوكب ، فالعادات والتقاليد والأفكار التى يتشاركها أفراد المجتمع ، والتجارب التى يمر بها الإنسان فتستقر فى أعماقه ، كلها أشياء يتّسم بها البشر واستمدها المجتمع البشرى عبر التاريخ جيلا بعد جيل ، وتناقلتها الأعقاب المتوالية كتراث اجتماعى .

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التى يتّسم بها و يعيش فيها ، كما أن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها ، ومقدارا معينا من القدرة على التغلغل فى المجتمع الذى تعمل فيه بحيث تتفاوت درجات هذ التغلغل .

وللثقافة مقومات مادية ومقومات معنوية ، فأما المادية فتتألف من طرائق المعيشة والأدوات التى يستخدمها أفراد المجتمع فى قضاء حوائجهم والأساليب التى يصطنعونها لاستخدام هذه الأدوات . فالصيد وما يستلزمه من عدة وسلاح ثقافة ، والقتال وأساليبه وما يستخدم فيه من عتاد وخطط ثقافة ، والزراعة والحرث وما يتبعهما من أدوات ثقافة ، والأزياء والزينة وأسلوب الترفيه ونوع التعاون الذى يسود بين أفراد القبيلة أو العشيرة ، كل

هـذا تشمله « الثقافة المادية » على أنه كلما ازدادت وتعقدت أنماط الثقـافة ازدادت تقبلا للحضارة ، بل إن هـذه الجماعة تكون أكثر قابلية للارتقـاء والتطور ، وهذا مايجعلنا نميز بين ثقافة رفيعة وأخرى وضيعة ، أو بين جماعات متحضرة وجماعات متخلفة عن ركب الحضارة .

وأما المقومات المعنوية للثقافة . فهى مجموعة العادات والتقاليد التى تسود المجتمع ، والتى توارثها أفراده جيلا بعد جيل ، والقانون أو العرف الذى يحكمهم ، والقواعد الأخلاقية التى تحدد علاقة بعضهم ببعض .

ذلك هو المفهوم الحقيقى لـكلمة « ثقافة » وهو كما نرى أوسع مما تعود الناس فهمه من الـكلمة ، بل إنه يغاير من بعض الوجوه ، المعنى المألوف الذى توحيه كلمتا « ثقافة » « ومثقف » .

والـكتاب الذى بين أيدينا الآن يتناول الثقافة بهذا المعنى الذى أوجزناه فى السطور القليلة السابقة ، والمؤلف هو الدكتور هارى شابيرو أحد العلمـاء المتخصصين فى الدراسات الأنثروبولوجية ، وهو يتتبع فى كتابه الطريف أثر الارتقاء التطورى البيولوجى ، وكيف أنه مكّن الإنسان (من بين جميع أنواع الحيوان) من الوصول إلى مستوى ثقافى ، ثم يتجـه المؤلف إلى التاريخ فيبين أثر الثقافة فى تغير مجرى أحداثه ، وما حدث فى التاريخ من اختلاط الثقافات المختلفة ، ثم يعرض لمشاكل عدة تتعلق بآثار

الثقافة ، لعل أهمها ، من النـاحية العملية ، مالاحظه من أن فهم كل مجتمع لتراثه الثقافى ، ومعرفته لتراث ثقافات الشعوب الأخرى يؤديان إلى إيجـاد نوع من الصلة والتعامل بين مختلف الشعوب .

فقد تناول المؤلف موضوع كتابه فى ثلاثة فصول : اكتشاف الثقافة ، وعلاقة الثقافة بالتاريخ ، واستعادة الماضى . فقال إننا عندما نستعرض الماضى ندرك أنه فى تاريخ أى حضارة يمتاز أى عصر عن بقية العصور بخصائص معينة ، قوامها الأفـكار التى يحرص عليهـا ، ووجوه النشاط التى يمارسها خصوصا وقـد أدركنا أهميـة عامل الثقـافة وكيف تنفذ وتتغلغل فى نسيج حياتنا .

ولقد كان من أهم العوامل على إدراك أهمية الثقافة ماقام به الرواد من كشف بقاع كانت مجهولة لنا ، وكنا لا نعرف شيئاً عن نشاط مجتمعاتهـا وأساليب حياتها وتنوع تقاليدها ، وهذه الزيادة فى الوعى الثقافى قد كان لها أثر بعيد المدى فى نطاق العلاقات الدولية .

ولا شك أن ثقافة أى قوم تعكس بصورة دقيقة وصحيحة قـدراتهم وإمكانياتهم ، ويترتب على ذلك إمكان تصنيف الشعوب والثقافات على أساس نظام تصاعدى من أكثرها بدائية ، من أسفل السلم إلى أكثرها تطورا على أعلاه ، والحقيقة أن هذا عمل شاق كما أنه قد ينطوى على نتائج

خطيرة ، لأننا لسنا على استعداد لتقويم شعب أو تقديره بالثقافة التى يتصادف وجودها عنده فى الحاضر . . فالتاريخ زاخر بأمثلة لظروف وأحوال كان يرث فيها الأرض ومن عليها أقوام منحطون فى درجة الثقافة ، وبأمثلة لأقوام كانوا برابرة فى أحد العصور ثم أصبحوا فى أعلى درجات التمدن فى العصر الذى تلاه ؛ فالإغريق والرومان والفرنسيون والألمان والبريطانيون ، وكلهم قد خلقوا حضارة لامعة ، كانوا يمثلون فى مرحلة معينة قوما غير متحضرين .

ولعل من أهم النقاط التى عرض لبحثها هذا الكتاب فى الجزء الخاص بعلاقة الثقافة بالتاريخ ، حقيقة تتجلى فى كتابات بعض المؤرخين المحدثين ، فان عددا من هؤلاء المؤرخين قد أصبح حساسا لأهمية عامل الثقافة بعد أن أخذت شباك البحث التاريخى تمتد وتغوص ، ومثال ذلك تاريخ محاولات الإنجليز لغزو ايرلندة فى عصر اليزابيث ، ففى كتاب ا . ل راوز «توسع انجلترا فى عصر اليزابيث »، يجمع المؤرخ بين التذوق الأدبى والتاريخى لشخصيات ذلك العصر وبين الشعور العميق بالمكان والزمان والثقافة . وبالرغم من أن الانجليز احتلوا ايرلندة بعد نضال طويل ، على نحو احتلال الفرنسيين لشمال افريقيا مثلا ، إلا أنهم فى الحقيقة لم يتمكنوا أبدا من اخضاع الشعب الأيرلندى أو إقناعه باتباع الطريقة الانجليزية للعيش . . ويعزى فشلهم إلى أنهم لم يتنبهوا أبدا إلى تأثير الثقافة العميق فى دوافع الناس واتجاهاتهم ولم يدركوا إلى أى حد يكون رد فعل الناس قويا فى تلك الظروف . وكان ذلك العجز فى تقدير أمر الصراع

الثقافى ، فضلا عن حسمه ، هو الصخرة التى تحطمت عليها مغامرة الانجليز فى أيرلنده ، وبذلك انتصرت ثقافة الايرلنديين وإن كانت ثقافتهم قد أصابتها تغييرات طوال فترة الصلة بين البلدين .

والمؤلف يؤكد فى خاتمة فصول كتابه الطريف أنه مامن حضارة نشأت على سطح كوكبنا قد ماتت ، ذلك لأن الحضارة ـ كما يقول المؤلف ـ لاتموت كما يموت الكائن الحى . والحقيقة التى نعرفها اليوم أن بين الحضارات الأربع الرئيسية التى ازدهرت فى العالم القديم احتفظ ثلاث منها بوجودها منذ بدايتها إلى العصر الحديث ، وهى وإن كانت قد أصابها التعديل والتغيير بعامل الزمان والمكان والظروف ، إلا أنها استمرت موصولة . والواقع أنا لانستطيع أن نتصور تاريخا بلا ثقافة ، فالشعب الذى يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه . . .

عبد الرحمن زكى

مقدمة المؤلف

يقولون إن الإيجاز هو روح الذكاء ، ولكن من سوء الحظ لا يستطيع الذكاء دائما أن يرد التحية بأحسن منها .

وفى أيامنا هذه ــ التى اشتهرت بالعناوين الموجزة ــ يستطيع الانسان أن يتنازل راضيا عن الذكاء إذا استطاع التأكد من وضوح فكرته .

ولست متأكداً تماما مما سيثيره عنوان هذا الكتاب « مجالى الثقافة » فى ذهن القارئ ، وحينما شرعت فى كتابته كانت فكرتى أن أعرض الطريقة التى أمدنا بها اكتشافنا الحديث للثقافة يمزيد من البصيرة والفهم لحياتنا اليومية ، ومشاكلنا الدولية القائمة وتاريخنا وحضارتنا نفسها .

إن تفسير ووصف مايعنيه عالم فى الأنثروبولوجى مثلا لكلمة ثقافة قد يحتاج وحده إلى كل المساحة التى خصصت لهذا الكتاب .

ويبدو من المجلدات الضخمة التى خصصها علماء الأنثروبولوجى لهذا الموضوع أنهم يشعرون بحاجة إلى مساحة أكبر ومجلدات أكثر مما قاموا به حتى الآن .

ولو أننى عالجت بعض موضوعات هذا الكتاب معالجة كاملة لكان شأنى مثل شأن علماء الأنثروبولوجى ، أى لاحتجت إلى مساحة أكبر وصفحات أكثر فأكثر . ولكن هدفى لم يكن كتابة بحث أو رسالة شاملة

عن أى موضوع من الموضوعات أو القضايا التى تناولتها فى هذا الكتاب . وإنما حاولت فقط ، بسرد أمثلة عديدة ، أن أوضح بعض الأفكار التى تولدت عن مفهوم الثقافة ، وأن أقترح بعض التطبيقات الإضافية التى تصلح للمتابعة .

ولست أدعى أن الأمثلة التى اخترتها هى بالضرورة أحسن الأمثلة فى هذا الصدد ، وإنما كانت تلك الأمثلة هى مجرد مايتبادر إلى ذهنى وقتئذ ، وأعتقد أنها وافية بتوضيح الفكرة العامة عن موضوع بحث هذا الكتاب .

وأنا على بينة ووعى من أن بعض القضايا الواردة فى هذا الكتاب مسائل خلافية . ولكنى متأكد أن اختلاف القارئ معى فى بعض تفسيراتى لاينقض فروضى الأساسية التى قوامها أن الثقافة هى التى تصوغنا وتشكلنا وتجعلنا كما نحن الآن ، وأنها هى التى تؤثر فى معاشنا اليومى ، وأنها أثرت فى تاريخنا ، وستقرر مستقبلنا ومصيرنا .

وأرجو أن يكون واضحا للقارئ أننى تمتعت بكتابة هذه المحاضرات لكى تلقى فى كلية يوجيه سوند فى تاكوما بواشنطن .

ويستطيع القارئ ، على الأقل ، أن يتبين ذلك بنفسه عن طريق أية أدلة تزوده بها الصفحات التالية ، ومع ذلك فربما لايستطيع أن يتبين ذلك بنفسه مالم أقل له صراحة إننى تمتعت بإلقاء تلك المحاضرات إلى حد كبير ، وقد نالت المحاضرات من جمهور المستمعين كل اهتمام وتقدير .

ولقد لاقيت من مدير الجامعة تومسون وهيئة الموظفين والأساتذة كرما

فوق مايقتضيه داعى الواجب، ولقد رحبت بى أسرة هالى بنبلها المعهود ، وقد مكننى خيرها وإحسانها من إلقاء تلك المحاضرات ، وإذا سمحت لنفسى بالانغماس فى خرافة عاطفية فاسمحوا لى أن أقول إنه حتى جبل تاكوما نفسه كان يطل من وراء الأفق ليجعل من هذه المناسبة ذكرى لاتنسى .

هارى شابيرو

ابريل سنة ١٩٥٦

مدينة نيويورك

الكشف عن الثقافة

عندما نستعرض الماضى فإننا ندرك أن كل عصر فى تاريخ أية حضارة يمتاز عن سائر العصور الأخرى بخصائص معينة قوامها الأفكار التى يحرص عليها ووجوه النشاط التى يمارسها .

ويكون ذلك أوضح ما يكون بصفة خاصة ، فى التطورات والأساليب الخاصة بالعمارة والتصوير والنحت التى تزدهر فى كل عصر، ولكن على الرغم من أن هذه التعبيرات الجميلة تبرز بروزا واضحا أكثر من غيرها وتعبر عن خصائص العصر إلا أنها ليست محاور الاهتمامات الوحيدة التى تميز عصرا عن غيره ، أو تفصل بين حقبة من الحقب وغيرها . هناك أشياء أخرى كثيرة غالبا ماتكون أقل وضوحا و بروزا ؛ لأنها لا تتجلى فى منشآت مادية يمكن لها رؤيتها ، لأنها تظل باقية بعد زوال العصر الذى أنشئت فيه ، أو لأنها تتمثل فى معان مجردة . وبذلك لا تحظى بالاهتمام العام أو تفلت من الملاحظة العامة .

ومن أهم تلك المعانى المجردة الأفكار والمفاهيم الفكرية والعقلية التى تشغل مساحة كبيرة فى عقول قوم عصرا من العصور، ولها من الأهمية والمكانة مايفوق غيرها فى عصر آخر .

ولعصرنا ـ كما لغيره من العصور التى سبقته ـ حشد من المفاهيم العقلية

التى تشغل بال النـاس ، وأحد تلك المفـاهيم هو ما اصطلحنا على تسميته بالثقـافة .

ولعل عصرنا ـ أكثر من أى عصر سبقه بل و فى خلال القرن الماضى فقط ـ كان الاعتراف بالثقافة يلقى فيه من الاهتمام البالغ بحيث أثر فى تفـكير الناس أعمق تأثير ، لذلك أرانى لا أتحرج من المجاهرة بأن الثقافة اكتشاف حديث .

وحيث إننى من الآن فصاعدا سأستعمل كلمة « ثقافة » ، فمن المستحسن أن أحدد ما أعنيه بتلك الـكلمة .

وربمـا كان من سوء الحظ أن علماء الأنثرو بولوجى قد استخدموا لأغراضهم كلمة ذات استعمال شائع وواسع ، وهم يقصدون عديدا من المعـانى قوامها « فن وعملية الفلاحـة ـ الأرض ـ المزروعة ـ عمليـة التحسين أو التطوير بالتربية ـ صقل الطبيعة الخلقية والعقلية ـ المدنية ـ ترقية العادات والذوق ـ حصيلة ماتفرد به شعب أو نظام اجتماعى » .

ولقد سببت تلك الاستعمالات لـكلمة ثقافة كثيرا من الاضطراب ، لأن عالم الأنثرو بولوجى لا يقصد عينا عملية فلاحة الأرض أو تذوق باخ أو الجريكو أو بروست حينما يتحدث عن الثقافة ، على الرغم مما يعنيه من أن الثقافة تتضمن تلك المظاهر .

إن الثقافة ـ كما سأستعملها ـ قد فسرت بأنها السلوك المكتسب ، وهى تتضمن كل الأساليب أو الطرز المألوفة وكل الأفكار والقيم التى يمارسها الناس و يحرصون عليها ويعتزون بها و يؤثرونها على غيرها كأعضاء فى مجتمع منظم أو موحد أو أسرة .

وهـذا التفسير لمعنى الثقافة تفسير فضفاض يحمل فى طيـاته ماهو أكثر بكثير من المعنى الشائع المـألوف للثقافة . ولـكنا من حقنا أن نتساءل :

حيث إن الثقافة تتضمن كل تلك الإجراءات والمعانى والمثل ، فما الذى نتركه إذا كانت تحوى فى طياتهـا كل ذلك ؟ والحقيقـة أنها لا تتضمن شيئاً واحداً ؛ وهو البواعث أو الحوافز الأساسية للسلوك من حيث هى بواعث أو حوافز .

فمثلا :

الجوع ينشأ من حاجات فسيولوجية لجهازنا الهضمى تدفعنا لـكى نفعل شيئاً حياله .

هذا الجوع ـ عند هذا المستوى وعند هذه النقطة ـ ليس ثقافة ، ولـكن الطريقة التى نأكل بهـا ، وأنواع الطعام الذى نستهلـكه ، والوسائل التى

اصطنعنــاها للحصول على القوت اللازم ، تعتــبر كلها من جوانب الثقافة وأوجهها . وبنفس الطريقة ــ تطبّق هذه القاعدة على غرائزنا الجنسية ــ فهى فسيولوجية فى منشئها ، ولـكن التعبير عنهــا والإشباع لها بنظم بطرق معينــة ويتخذ أشكالا خاصة مألوفة وشائعة فى المجتمعات الإنسانية ، وهذه الأشكال تدخل فى نطاق تفسيرنا للثقافة .

ولـكن ماقولنا فى أنواع السلوك الشاردة ، أو الزائفــة الفـكرة ، أو الوهم الفردى ، أو الميول المضــادة للمجتمع التى قد تصــدر عن بعضنا أو جميعنا ، أو التى قد نخفيها ــ بحكمة ــ فى وقت أو آخر ؟

هنا يصبح الحد الفاصل أكثر صعوبة فى التحديد ؛ فبعض تلك الأوجه من السلوك أو التفــكير التى قد تبدو فردية أو غير مكتسبة أو غير منظمة ــ قد تــكون فى واقع الأمر والأثر ردود أفعال لحقائق ثقافيــة لدرجة أن وجودها أو قيامها فى حد ذاته قد يكون مميزا ، أو وقفا على الثقافة التى تحدث فيهــا ؛ فهى لذلك من لحمتها وسداها .

هل نحس بمشاعر الذنب إن لم تــكن لدينا أفــكار عن الخطيئــة فى ثقافتنا ؟؟ ربما ــ ولـكن شكل ونوع الذنب يبدو أنهما يتأثران بما تعتبره ثقافة معينة ــ خطيئة .

هل كان فى مقدور المحللين أن يحددوا مركب أوديب إن لم يكن هناك

أب مستبد قد سودته الأسرة فى تركيبها ووضعها الاجتماعى ؟ ومع ذلك — فطبعاً — توجد بعض أنواع من سلوكنا ومشاعرنا التى لا تعتبر خاصة ولا معينة بالمعنى الثقافى . وزيادة على ذلك ، فإن قدرتنا على ممارسة الاختيار فى النطاق الموجود تعطينا شعورا بالتحرر من القيود الثقافية .

ومما يثير العجب فى أمر الثقافة — وقد أصبحنا الآن على وعى بهـا — أننا نستطيع أن ندرك بوضوح أكثر وأكثر تغلغلهـا ونفاذها فى نسيج حياتنا ذاته وكم قطع النـاس من أشواط ، وكم استنفدوا من وقت للوصول إلى الموضوعية اللازمة لتذوقها .

وينبغى ألا يثير ذلك فينا الدهشة ؛ ذلك أن الثقافة بطبيعتها لا تتجـلى لنا كظاهرة واضحة حتى نتعلم الاعتراف بها وإدراكهـا ، فمنـذ الطفولة — أو حتى منذ الميـلاد — نتشكل فى أنواع معينـة من السلوك حتى تصبح آلية تقريباً . فنعاقب إذا انحرفنا ،ونثاب أوعلى الأقل نتلافى العقاب إذا ما فعلنا ما نؤمر به . فنحن نتعلم ما يطلب منا ، وما يتوقع منا ، وما نتوقعه من غيرنا . ونتعلم ما يعجبنا ويظفر بتقديرنا ، وما لا يعجبنا ولا يظفر باحترامنا .

كذلك نـكتسب بالتعلم ما نعتـبره أهدافاً لنا وغايات نشارك فيها مع

الظروف الأخرى قومنا حتى نعرف نحن ويعرفوا هم كيف نسلك ويسلكون في المواقف العادية التي تنجم في مجتمعنا .

وبذلك نتلافى ضرورة اتخاذ سلسلة متتابعة دائمة من القرارات المتعمدة الجدية . وعلى هذا الأساس فإن تأثير الثقافة يصبح مألوفا ولاشعوريا ، ويجعل الحياة أكثر سهولة ويسرا ، مثلها في ذلك مثل التنفس والمشي ووظائف الجسم الأخرى التي تخضع لضوابط لاشعورية ، وبذلك تحرر أعضاء المخ الواعية من هذا العبء وتطلقه ليؤدي أوجه النشاط الأخرى .

وكل ذلك يعني أن معظمنا يؤدي سبل نشاطه بطرق مألوفة معتادة تبدو صحيحة كالمطر ، أو طبيعية كالقمح في كانزاس . وأي شيء يخالفها يبدو خاطئا ، أوشاذا ، أوضالا ، أومرذولا ، أومضحكا .

مثل الثقافة كالهواء الذي نستنشقه نسلم به تسليما ولانكاد ندرك ذلك . ولكن الثقافة كالهواء أيضا إذا ماخالطه الضباب أوحمل بالدخان أواشتد برده أوحره ، فإنها (أي الثقافة) في هذه الحالة تتميز بصبغة واضحة لايمكن تجاهلها . فعندما نلتقي أقواما آخرين من ثقافة أخرى يسلكون بطرق غير مألوفة لنا ولاشائعة عندنا فإننا ندرك حقيقة هذه الظاهرة ، ولكن ردفعلنا عادة هو أن ندمغ مثل هذا السلوك بطابع الغرابة أوالشذوذ .

وكان ذلك هو الأمر الشائع في مراحل عديدة في الماضي ، كما أنه مازال

سائدا عند أقوام كثيرين فى وقتنا الحاضر حتى القبائل البدائية التى تلقى جيرانها ذوى التقاليد المختلفة ، ثم تعرف – وأحيانا تصاب بنوع من خيبة الأمل – أن هناك معايير أخرى للسلوك تختلف عن معاييرهم الشائعة عندهم والمألوفة لديهم .

وقد تبين الإغريق تلك الاختلافات ودمغوا بالبربرية كل من جافى معاييرهم وسموا برابرة أولئك الذين فشلوا فى الانصباب فى قوالب الإغريق .

وقد اهتم هيرودوتس المؤرخ اهتماما بالغا بما يطلق عليه اليوم البحث الأنثروبولوجى ، وآية ذلك أنه ثابر على تسجيل عادات وتقاليد المصريين وأقوام الشرق الأوسط الذين قابلهم فى أسفاره .

وطوال رحلة الحضارة – هبوطا وصعودا وماتتابع عليها من حقب لها خصائصها ومميزاتها فى التفكير والسلوك ونمط العيش – زودنا التاريخ نفسه من ماضينا بأمثلة دالة على نفس الظاهرة .

ولكن الوعى بحصيلة تحكم الثقافة وثمرتها يختلف عن اكتشافنا أن تلك الحصيلة هى نتيجة لعملية قابلة للتحليل والتعميم ، وأن دراستها وفحصها ورصدها لايزودنا بوسيلة لفهم سلوك الآخرين فحسب ، بل لفهم أنفسنا أيضا .

ولم يكن هذا هو شأن من سبقونا من الدارسين ؛ إذ كان اهتمامهم بالثقافة فى هذا المعنى الوسيع اهتماما ضئيلا نحيلا ؛ فلم يدرك الكاتب تاستيوس

وهو يصف مستويات الأخلاق عند إحدى القبائل البدائية المتأخرة (قبيلة الجرمانى)، ولاهيرودوتس المؤرخ اليونانى عندما زار مراكز الحضارة القديمة، لم يدرك لاهذا ولاذاك أو يتبين فى الحقائق الأنثروبولوجية التى جمعها مايتضمن أنهما كانا يعالجان عملية لها من خصائص التحقق ماينسحب عليهما مثلما يطبق على موضوع بحثيهما .

وربما كان لانبثاق الثقافة فى وعينا وإدراكنا فى الأزمنة الحديثة فقط ــ باعتبارها عاملا حاسماً فى تقرير السلوك وموضوعا للبحث والتحليل ــ ربما كان لذلك أهمية ومعنى لايمكن تجاهلهما أو إغفالها .

فلم يسبق فى تاريخ الإنسان أن اتصل الناس من مختلف الثقافات بعضهم بالبعض الآخر ذلك الاتصال الوثيق كما هو حادث اليوم ؛ فمنذ بدء عصر الاكتشاف الذى افتتحه الملاحون البرتغاليون فى القرن الخامس عشر والأوروبيون ينتشرون فى كل نواحى العالم . بل ويمكن الجزم بأنه لا توجد بقعة فى العالم لم يسبق لهؤلاء المبعوثين أن ارتادوها أو زاروها أو وصفوها على نحو ما، وإلى حد ما .

قارات بأكملها مليئة بسكانها الأصليين المقطوعين عن بقية العالم لقرون سحيقة فى القدم، ولهم حضارات أذهلت المكتشفين بروعتها وعظمتها، أصبحت اليوم فى متناول بصرنا وسمعنا، أفريقيا وأستراليا والباسيفيك كشفت

عن أقوام ذوى ثقافات مختلفة أصابتنا بالدهش والروعة . . ثقافات لم نكن لنتخيلها أو لنسمع عنها فى مراكز الحضارة الغربية .

ولقد تعودنا أن ننظر إلى عصر الاكتشاف ذلك كوقت كانت فيه المعرفة بشكل الأرض ومداها آخذة فى الازدياد السريع ـ مسألة قارات ومحيطات وأنهار وسلاسل جبال ـ أى بالاختصار ننظر إليه نظرة جغرافية . ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة أفلتت من حسابنا وأغفلت من نظرتنا ـ فلمدة أربعة قرون متتابعة استمر الاكتشاف لكل جانب من جوانب الطبيعة بما لم يسبق له مثيل من قبل .

وبدأت أنواع المعرفة تتوالى وتصب فى أوروبا من كل حدب وصوب . وكانت كميتها وتنوعها فى حد ذاتها حافزا كبيرا لكل أنواع البحث العلمى والدراسات المتخصصة لمجرد تنظيم وتنسيق وتبويب تلك المعلومات على شكل يسهل استخدامه .

فمثلا : شغل علماء النبات والطبيعة أنفسهم ـ عند ما واجهوا هذا السيل الجديد من أنواع النباتات والحيوانات ـ فى تصنيف وتنظيم وتنسيق وتبويب تلك الأنواع الجديدة .

وفى الحقيقة يمكننى القول بأن كثيرا من التقدم فى هذين الفرعين من

العلوم فى القرن السادس عشر وما تلاه يعزى إلى ذلك المصدر .

ولكن هذا الحشد الباهر المتنوع من المعرفة الجديدة لم يكن مقصورا على النبات والحيوان أو الأنهار أو الجبال أو الأراضى والبحار .

و إنما اكتشف أيضا عديد مذهل من الأقوام والحضارات لم يسبق لأحد فى أوروبا أن يعرف حتى بوجودها . وكان عدد تلك الأقوام والحضارات هائلا ، وأنواعها وتباينها واختلافها مذهلا .

ولقد قدر ميردوك عددها بنحو ثلاثة آلاف ثقافة متميزة بخصائص معينة كل على حدة .

فإذا نصفنا هذا العدد ــ لكى نرضى حماسة عالم الأنثرو بولوجى و تصنيفه الدقيق ــ كان معنى ذلك نسبة تبلغ معدلا من ثلاث إلى أربع ثقافات جديدة اكتشفت كل عام على مدى أربعة قرون .

ولذلك فمن العسير أن نظل متجاهلين وغافلين وغير حساسين حيال هذا التنوع الثقافى فى مواجهة تلك العملية المستمرة الطويلة من الاكتشاف .

وفى الحقيقة كان رد الفعل المبدئى يتميز بالغرابة والشذوذ إلى حد ما حيال أنواع السلوك الغريبة التى صادفها المستكشف .

فالإسبانيون مثلا لم يكادوا يصدقون أن هناك أقواما بشرية تسلك على غرار ما كان يفعله الهنود وقتئذ . ولذلك نشبت قضية خلافية لا تخلو من حيوية وطرافة ؛ دخل فى جدالها ممثلو الكنيسة والمراسلون الذين كانوا يبعثون بأنباء الغزو . وكان قوام هذا الجدل هو :

هل لهؤلاء الأقوام من السكان ــ الذين اكتشفهم الغزاة حديثا فى الدنيا الجديدة ــ أرواح مثل غزاتهم ومكتشفيهم ؟ ؟

ويظهر أن بعض الإسبان لم يكونوا واثقين تماما من أن تلك الأقوام التى وجدوها فى أمريكا كانوا من الأناسى ! ومن أنهم لو كانوا كذلك أهمُ رعايا تصلح للتحول والهداية إلى الدين المسيحى ؟ ومع ذلك فباستمرار الاستكشاف اقتضى أثر هذا الحشد الهائل من الأقوام المتميزين بخصائص معينة وبهذا الخليط العجيب من طرق وأساليب الحياة ، اقتضى ذلك كله من ذكاء الأوروبيين نوعا من المرجع أو التفسير لهذا التنوع العجيب والاختلاف فى الأقوام ولهذه الكثرة الطافحة فى العادات والطرز وأنماط العيش .

وكانت بعض التفسيرات ــ طبعا ــ متسمة بالطابع الفكرى لذلك الوقت. ومنها مثلا تفسير مازال سائدا عندنا وهو نشأة الهنود أصلا من قبائل إسرائيل.

العشر المفقودة . ذلك أن عشر قبائل من إسرائيل قيل إنها تاهت بعد أن فشلت فى العودة من الأسر .

هنا كان يوجد قوم فى الدنيا الجديدة لا يمكننا التوصل إلى معرفة منشئهم بالقياس إلى الأمم المعروفة من العالم القديم ، ولذلك فلابد أن يكونوا من سلالة القبائل المفقودة ! !

ومن سوء الحظ ــ حيث إن هذا الحل البسيط الساذج استنفد فى تفسير نشأة الهنود ــ فلم يبق ثمة مجال فى هذا المشروع لتفسير نشأة الأستراليين الأصليين أو لغيرهم من السكان والأهالى الذين صادفهم المستكشفون بعد ذلك . ولكن العلماء الأوروبيين استمروا فى البحث عن نظام لتصنيف وتقسيم تلك الأنواع والأشكال الجديدة من بنى الانسان .

وفى البداية كان المجهود منصباً على ملاءمة تلك الأقوام التى اكتشفت حديثا فى نظام للتصنيف على غرار الأنظمة والعينات التى بوبها ونسقها العلماء الطبيعيون .

فكان Bernier برنير فى سنة ١٦٨٤ أول من حاول عمل مثل ذلك التصنيف المنسق دون أن يستند إلى أى نظرية فيما يتعلق بنشأة أو انتشار النوع الإنسانى فى الآفاق و بأقل اهتمام أو تركيز فى الثقافة .

ويبدو أن معظم العلماء والباحثين قد وجدوا حلا مرضيا لتلك المشكلة فى الإنجيل الذى أرجع أجناس الإنسان كلها إلى سلالات منحدرة من أبناء نوح تمايزت تدريجيا عن بعضها بطريقة لم يتعرض لها الإنجيل أبدا بالتوضيح. ونحن إلى الآن مازلنا نتمسك برواسب وآثار ذلك التفسير للسلالات البشرية باستعمالنا للفظى الحاميين والساميين.

ومن المحتمل أن يكون العلماء الأوروبيون قد واجهوا أولاً مشكلة الاختلاف الجسمانى فى الإنسان ولم يجدوا لهـا تفسيراً لأنهم كانوا قد انتهوا من تقرير نمط للتفكير عن الاختلافات فى الصفة التشريحية والشكلية للحيوان والنبات.

والدليل الجسمانى للاختلاف فى الإنسان طابق ذلك التفسير القائم الذى توصلوا إليه من قبل بالقياس إلى الحيوان والنبات.

ولكن وعيا متزايدا وإدراكا محققا للتنوع والاختلاف الثقافى ومعناهما مالبثا أن انبثقا.

وبدأنا نصادف أولا مقالات تعالج الظواهر الثقافية، وتجارب مختلفة أجراها العلماء مستعينين بتلك الحقائق العلمية المجمعة، يساندون بها الفروض الخاصة بالهجرة ويربطون بينها وبين بعضها الآخر بعلاقات وأسباب تفسيرية.

وفى مطلع القرن التـاسع عشر بدأ الأنثرو بولوجى ـ كعلم يعنى بالدراسة المنظمة للإنسان من الناحيتين العضو ية والثقافية ـ فى الوقوف على قدميه بحيث جذب انتباه العلماء والباحثين فى أورو با ولقى عونا ومساندة من مراكز العلم والبحث .

الثقافة والاستعمار

على الرغم من أننى أشرت إلى أن الثقافة ، كمفهوم مجرد ، هى وليدة تجربة الأوروبيين الشاسعة عندما لاقوا عالما جديدا من العادات والسلوك والطرز فى فترة من الزمان قصيرة نسبيا ، إلا أننى لست من أنصار فكرة أنه ما كان يمكن حدوثها أو تطورها تحت ظروف أخرى .

ذلك أن عصر الاستكشاف كان نوعا من (الصوبة) يمكن اعتباره مشتلا أو مفرخا زودنا بثمرة المعرفة قبل أوان الحصاد فى ميقاته المنوط بفصول السنة ، بحيث إنه سارع بالإنضاج مما لو كان الأمر بدون (صوبة) .

ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل عاملا هاما آخر أسهم فى إثارة الاهتمام بتلك المشكلة .

فمنذ بداية الاتصال الأوروبى بالأقوام والسكان الأصليين لمستعمراتهم كانت العلاقة والصلة علاقة استغلال وصلة انتفاع .

فالملاحون البرتغاليون وكولومبوس كانوا يبحثون عن طريق للتجارة ، كانوا يأملون فى شقها واستخدامها ابتغاء الكسب المادى والمتعة .

وسواء أكان الأوروبيون قد نجحوا كما نجح البرتغاليون أم أخفقوا كما أخفق كولومبوس ، فإنهم جميعا صادفوا أقواما والتقوا بشعوب أخضعوها لاستغلالها فى التجارة أو تسخيرها فى العمل .

ولكن هؤلاء الأقوام والشعوب كانوا يعيشون وفق عادات ويلتزمون بقواعد وأحكام كان يتعين على غزاتهم ومستعمريهم أن يتفهموها لكى يحققوا أغراضهم .

وفى الحقيقة لا توجد إلا أدلة ضئيلة تبرهن على أن أولئك المستكشفين الأولين والغزاة وأصحاب المشروعات التجارية قد بذلوا جهدا كبيرا لتفهم عادات وطباع وقواعد ونظم الأقوام التى غزوها ، على الرغم من أن بعض كتاباتهم ووصفهم لحياة السكان الأصليين ، حتى فى ذلك الوقت ، تدل على محاولة مخلصة وإن تكن مبعثرة لفهم أسس وعادات وطباع أهالى تلك المناطق .

ومن الشائع جدا أن نجد أن الاتصالات الأوروبية الأولى كانت بكل أسف مقرونة بجهل ثقافى أدى إلى نتائج مدمرة على الأهالى من سكان المستعمرات .

وأحيانا كان الاستعمار ميسورا سائغا فى المناطق التى محى منها أهلوها محوا من الوجود ، وعندئذ لم تكن هناك ضرورة طبعا للتصرف حيال

ثقافات القوم . ولكن حينما حاول الاستعمار أن يلقى مراسيه فى مناطق مأهولة بالسكان الأصليين كما كانت الحال فى بيرو والمكسيك وجنوب أفريقيا ونيوزيلندة وكينيا ، أو عند ما اصطنع نمط استعمارى من تحكم الأوروبيين فى الأهالى ، كما حدث فى الهند والملايو وجاوه والفيليبين ، فإن مشكلة ثقافة الأهالى كانت محل اعتبار كبير . وربما لا يخلو الأمر من معنى هام ؛ ذلك أن ثقافة الأهالى تحت تلك الظروف كانت فى العادة تظل نابضة بالحياة إذا ما كانت قد وصلت إلى مستوى راق من استعمال الآلات غالبا ما تكون فى شكل زراعة تقيم أود عدد كثيف من السكان . أما الجماعات التى استسلمت بسرعة ، باستثناء عدد قليل ، فكانت الأقوام الأكثر بدائية التى تعيش على الصيد والقنص وجمع الثمار فى قلة من السكان تشغل مناطق بالقدر الذى تسمح به اقتصادياتها .

وليس معنى ذلك أن بعض القبائل التى تعيش على الصيد وجمع الثمار لم تزل باقية حتى وقتنا الحاضر ، ولكنهم عادة مثل الأسكيمو أو سكان الوديان البعيدة فى غينيا الجديدة الذين مازالوا أحياء يرزقون ، لأنهم يسكنون أقاليم لا يطيب العيش فيها للأوروبى أو يصعب عليه التوغل فيها .

يمكننا أن نستخلص من تلك المعلومات تعميما قوامه أن بقاء ثقافة ما إذا ماتعرضت لأخطار الاستغلال يتوقف على مستوى تطورها الآلى الفنى ومنوط

بكثافة سكانها . ويمكننا أن نضرب مثلا حيث تنفرد كثافة السكان باعتبارها العامل الحاسم .

إذ بوجود حالة من كثافة السكان مع انعدام الزراعة ـ فإن كثافة السكان فى حد ذاتها كانت تزود القوم بنوع من الحصانة وضمانا ضد الانقراض .

وهذا العامل بالذات ـ عامل كثافة السكان ـ هو الذى يفسر لنا الفروق الشاسعة بين استعمار الدنيا الجديدة والعالم القديم . وبصفة عامة لم يستطع الأوروبيون العيش الدائم والاستقرار أبدا فى المناطق المستعمرة التى استعمروها فى آسيا وأفريقيا للسبب البسيط ؛ وهو أن تلك المناطق كانت فعلا كثيفة السكان ولم يخضع السكان أو يذعنوا لوطأة الضغط الأوروبى ، و بذلك لم يزودوا المستعمر أبدا بالمساحة غير الآهلة بالسكان اللازمة لمشروعات الاستقرار .

ونتيجة لذلك لا تجد أقاليم تقتصر سكناها على الاوروبيين ، لا فى الهند ، ولا فى جنوب شرقى آسيا ، ولا فى الجزر الغنية المتاخمة الآهلة بعدد كثيف من السكان .

أما فى الدنيا الجديدة فقد كانت الأراضى فى معظمها تسكنها جماعات تعيش على الصيد وجمع الثمار ، موزعين على مساحات كبيرة ، متفرقين بحيث لا يشكلون عددا كثيفا من السكان فى أية منطقة .

لذلك لم يتمكنوا من المحافظة على اقتصادياتهم فى وجه الاحتلال الأوروبى مما أدى إلى تحطيم أساس عيشهم ذاته .

ولذلك ذابوا وانقرضوا ، أو تمكن الأوروبيون من تدميرهم إذا ماحاولوا الدفاع عن طريقة حياتهم وأسلوب عيشهم حيث إنهم كانوا قليلى العدد ومعدومى السلاح .

والاستثناءات التى حدثت فى كلا العالم القديم والدنيا الجديدة ـ التى تشذ عن تلك النتيجة ـ تخدمنا فى البرهنة على تلك القاعدة العامة ، ففى بيرو والمكسيك وجنوبى غربى الولايات المتحدة حيث قدر لثقافات الأهالى البقاء ، فقد كان السبب فى بقائها راجعا إلى قيام تلك الثقافات على أساس الزراعة التى كان يمكن ممارستها والاستمرار فيها بصرف النظر عما كان يحدث خارج نطاق الأراضى الزراعية .

وزيادة على ذلك فإن الزراعة قادرة على أن تعين عددا أكثر كثافة من السكان ، وعلى العكس من ذلك فإن الاستعمار الذى حل بأفريقيا واستراليا أو نيوزيلندة لم ينجح إلا بسبب أنه ركز محاولاته حيث يقل عدد السكان من الأهالى .

فحركة الاستعمار إذن هى التى وسعت وقربت الصلات المباشرة بين الأوروبيين وبين شعوب العالم . وبحلول القرن التاسع عشر كان الأوروبيون

يحكمون مناطق كبيرة تسودها ثقافات لم تكن معروفة لهم من قبل .

وسرعان ماتبين لهم أنه يتعين عليهم أن يفهموا أساس سلوك تلك الشعوب إذا أرادوا أن ينجحوا فى حكمها ويوجهوا عملهم وعملها الوجهة التى تحقق مصالحهم .

و بالاختصار وجد الإداريون الأورو بيون أنفسهم وجها لوجه مع الثقافة وكانت المشكلة مشكلة عملية أولا وقبل كل شىء .

ويدل سجل المستعمرين على أن اتجاهاتهم فى هذا الصدد غالبا ما كانت متعثرة ، وأحيانا كانت تتسم بطابع الغباوة وضيق الإدراك فى فهم تلك الحقائق والاعتراف بها .

ويعزى إخفاق بعض المحاولات الأولى بلا شك إلى المحاولات الضالة التى خاضها فريق من الأوروبيين ذوى آفاق ضيقة فى نطاق ثقافاتهم بحيث كانوا ينظرون إلى كل مايغاير قيمهم وثقافاتهم وأساليب حياتهم ـ نظرة ملؤها الازدراء والتأسى . وكان علاجهم لها هو النظر إلى تلك المظاهر باعتبارها طفلية ، أو مضحكة تدعو إلى السخرية ، أو شريرة ، ثم يحاولون إحلال ثقافتهم محلها بأسرع مايمكن ، و بالقوة إذا لزم الأمر .

والذى أخفق فى إدراكه هؤلاء الحكام للمستعمرات هو أن السلوك محبوك ومرتبط وملائم للنمط الثقافى بحيث إن وسائل التدخل القسرى الغليظة حياله ووسائل القمع والاعتساف فى شئونه إما أن تؤدى إلى تدمير القوم أنفسهم

أو تدفعهم إلى أنواع من المقاومة لم تكن فى حسبان المستعمر ولم تخطر له على بال . و بذلك تؤدى إلى إحباط أهداف حكامهم .

ومن المحقق أن تجربة الاستعمار قد أسهمت بنصيب وافر فى إشاعة الوعى بالثقافة سواء أكانت التجربة ناجحة أم فاشلة . وكلما زاد عمق تلك التجربة شحذت اهتمام العلماء بنفس الظاهرة . ولا يخلو الأمر من طرافة ، ان ما كان يبدو بحثا أكاديميا مجردا مقصورا على علماء الانثروبولوجى بدون قيمة عملية أو بأقلها قد ثبت أنه من أعظم الأمور أهمية فى الشئون الاستعمارية .

ولكن هذا الإدراك وهذا الاعتراف جاء متأخرا فيما يتعلق بتثميره لنجاح الاستعمار وتحقيق أهداف المستعمر .

ولكن دور الثقافة مع ذلك لم يقل شأنه بتقلص الاستعمار وانحساره . إن دور الثقافة يعنينا اليوم وسيظل يشغل بالنا فى المستقبل .

خذوا مثلا برامج النقطة الرابعة ، هذا مشروع يستهدف تقديم العون للمناطق المتخلفة عن طريق انتفاعها بثمرات ومزايا التقدم الصناعى .

إنها فكرة معقدة التركيب تتألف من غايات كلها إيثار ، مقرونة بسياسة عملية لاستقرار شئون العالم .

ولكى نضع برامج هذا المشروع موضع التنفيذ فإن الأمر يقتضى نقل

سبل وقيم تطورت في ثقافة ما ولأمت ثقافة ما إلى ثقافة أخرى تختلف عنها .

ولقد أدى تجاهل الاعتبارات الثقافية وإغفال أمر الوضع الثقافى إلى صعوبات سرعان ما أدرك المشرفون على تنفيذ برامج النقطة الرابعة أنها قد تتسبب فى بوار البرنامج ذاته وتحطيمه تحطيما .

وفى الحقيقة ظهر أن أعظم المشكلات ليس توافر المقدرة الفنية أو الآلات أو المال ، ولكن الاستجابة الثقافية لها .

وربما لا يخطر ببالنا أن ماهو مرغوب فيه عندنا فإننا نتقبله لأنه جزء متكامل من تدريبنا ونشأتنا لا يمكننا تلافيه ، ونادرا مانحس به .

ولكن ـ عند غيرنا ـ الذين نشئوا وتدربوا تدريباً مغايراً لنا قد لا يبدو مقبولا أو مرغوباً فيه ؛ فلكى نقنعهم بتقبله والرضا عنه فذلك يحتاج إلى جهود مضنية بصيرة .

وبالقياس إلى المستقبل فإن من أخطر الأمور التى تواجهنا هو الصعوبة المستمرة أمامنا لفهم ثقافات غيرنا فى عالم زاخر بالحساسية القومية ؛ وبالصراع من أجل السيطرة ، وبالقروح المتخلفة من ذكريات الاستعمار .

فلكى نمضى قدما بنجاح فى عالم كهذا حيث لا تميل القوى المهيمنة إلى استغلال العداوات الثقافية وسوء الفهم فى تحقيق أهداف السيطرة ، علينا أن

نزود أنفسنا بالفهم الأساسى للقوة الجبارة التى تمثلها الثقافة ، ثم نقرن ذلك بالبصيرة التى تمكننا من الاستجابة المستنيرة لما تحويه فى طياتها من جيل وأفانين .

وأنا لا أتحرج من التنبؤ بأن الثقافة فى نطاق العلاقات الدولية ستلعب دوراً آخذا فى الازدياد لا التناقص ، وأننا سنزداد الماما ومعرفة وخبرة بالمفاهيم الكامنة فيها ــ ذلك أن العصر الذى نعيش فيه هو عصر الوعى الثقافى .

الثقافة والبيئة

اعتاد علماء الأنثروبولوجى أن يهتموا بمسألة « العموميات » فى الثقافة ، وهى تلك الأنماط من السلوك التى تحدث فى كل الثقافات والتى يمكن اعتبارها جوانب أو أوجها أو نواحى حتمية أولا يمكن تلافيها . فاللغة ـ التى هى إحدى عناصر الثقافة ـ واحدة منها .

والأسرة ـ أيا كان شكلها أو تركيبها ـ واحدة أخرى .

فمن الصعب مثلا أن نرى كيف يقدر لثقافة ما البقاء بدون اللغة كوسيلة للاتصال والتعلم .

ولا يمكن لثقافة أن تبقى طويلا بدون حماية الطفل ـ ولكن الأهم من ذلك هو حقيقة أن الثقافة ذاتها عالمية .

إذ لا توجد جمهرة من بنى الإنسان يعيشون معا كقوم دون أن يشتركوا فى ثقافة . وفى الحقيقة يستحيل قيام جماعة إنسانية بدون ثقافة أو على الأقل يصعب تصورها .

حتى الناسك أو المعتزل الذى يظن أنه فرغ من أمر الناس وتركهم لشأنهم فإنما يحمل فى طياته وثناياه بعض هذا الأمر دون أن يدرى ؛ إذ سواء أحب

ذلك أم كرهه فان اتجاهاته وأفكاره التى غرست فيه فى طفولته وتغلغلت فى ذاته ، تظل كامنة فيه لاصقة به بشكل خفى كالشوكة الدقيقة التى لا ترى .

ومن المستبعد جدا أن يتمكن بعض الأطفال الذين قيل إنهم تركوا فى الغابات فى أوقات الطوارئ أوالمجاعات من البقاء فى حالة انعدام ثقافى .

ويقال إن هذه الحالة كانت معروفة فى أوروبا أثناء القرون الوسطى ـ وربما حتى القرن الثامن عشر ـ فقصة هانزل وجريتل الخرافية تصور هذه العادة الشقية فى قالب أكثر استساغة ، وربما كان فى ذهن Linnaeus بعض تلك الحالات النادرة عندما احتفظ فى تصنيفه للنوع الإنسانى بمكان للإنسان المتوحش . وقد جاءت حديثا تقارير من الهند ـ قد تكون مثار خلاف إلى حد ما فى الأخذ بها ـ تصف حالات مشابهة بتفصيل واف لظروفها .

ولكن حتى إذا استطاع طفل هنا أوهناك أن يعيش بعد هذه الظروف ـ وهذا أمر مشكوك فيه إذا أخذنا بظاهره ـ فإن أية جماعة من الأطفال ستبدأ فى خلق ثقافة ؛ لأن من طبيعة الإنسان أن يصطنع وسائل للحياة ، وأنماطا للعيش .

هذه الظاهرة المتعلقة بعالمية الثقافة يمكن تفسيرهاباعتبارها حصيلة للتطور الإنسانى . ذلك أن الإنسان لم يكن ليقدر على خلق ثقافة إلا بسبب كونه

قد طور جهازيه العضوى والعصبى اللذين يسرا له هذ الخلق . ولكن الإنسان – عن طريق هذا الخلق والابتكار – أوجد مجالا آخر و بعدا جديدا من أبعاد بيئته كان لزاماً عليه أن يلائم نفسه له .

ويمكننا أن نفهم هذه العملية إذا ألقينا أولا نظرة على الشوط الطويل لتطور الحيوان الفقرى من أسفل سلم الحياة إلى أعلاه فى الإنسان .

عندئذ تتضح لنا حتمية الثقافة ، ويمكننا أن نتبين أثرها على التطور الإنسانى كتكميل فريد للتطور ذاته . ذلك أننا نجد فى شوط التطور الطويل المعقد أن التنظيمات والنماذج المتنوعة المتباينة للحياة العضوية يمكن تفسيرها بأنها ناتجة عن تأقلم وملاءمة لتنوع واختلاف البيئات الذى يكاد يكون لا حد له .

فقدرة السمك على الحياة فى الماء سواء أكان عذبا فراتا أم ملحا أجاجا تتوقف على أجهزتها الكلوية وغيرها من الأجهزة التى طورها السمك والتى مكنته من ملاءمة وظائفه الفسيولوجية للعيش فى المياه ذات الملح المركز أو المفتقرة إليه .

فالسمك كما نعلم يموت إذا أخرج من الماء ، ولكن بعض أنواع السمك فى عصور سحيقة فى القدم كانت مزودة بأعضاء تستطيع استخدامها

للحصول على الأوكسيجين اللازم من الهواء بدلا من الماء ، وبذلك كانت تستطيع أن تعيش على اليابسة لفترات محدودة .

وقد كان لهذه العملية ، أو لهذه القدرة على الملاءمة ، نتائج بلغت حد الكارثة ؛ لأنها أتاحت الفرصة للفقريات أو الكائنات الحية ذات العمود الفقرى لاستغلال أراضى العالم لأول مرة .

وكان يتعين على تلك المخلوقات ـ لكى تنتفع بموارد الأرض ـ أن تصطنع لأنفسها بعض وسائل الحركة المناسبة للتنقل فى بيئة جامدة نسبياً .

ولم يكن عتاد السمك الذى زودت به الفقريات الأولى التى احتلت الأرض كافيا أو وافيا بالغرض المطلوب . عندئذ بدأت عملية التحويل الطويلة البطيئة من جسم طويل متعرج مزود بزعانف إلى جسم من ذوات الأربع قادر على أن يحتمل ثقله وأن يتحرك فى خفة وسرعة . وقد كانت عملية لا يمكنها أن تترك الشكل أو الهيئة القديمة إلا إذا كانت الهيئة الجديدة تأخذ شكلها تدريجيا . أى إن القديم اندغم فى الجديد تدريجيا ، ولذلك يمكن رؤية آثار حالتها السابقة فى الفقريات الأولى ذوات الأربع . ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ؛ فالأرض لم تكن بيئة مسطحة متجانسة وإنما كانت ملأى بالتلال والوديان والسهول والجبال والمرتفعات والمنخفضات والمستنقعات والصحارى .

ثم هناك الجو ، فتارة يكون حارا ، وطورا يكون باردا . والنباتات مختلفة الألوان والأشكال والحجوم والأنواع حسب الأمكنة التى توجد فيها .

فلم يكن بد لتلك الفقريات ساكنة الأرض من أن تلائم نفسها لكل تلك البيئات وكل تلك الظروف المتنوعة فى البيئة وأن تصطنع عديدا من الأجهزة تمكنها من أن تعيش فى تلك الظروف المعينة التى كانت قائمة .

وظلت بعض البيئات خالية من تلك المخلوقات ؛ لأنها لم تكن بعد قد اصطنعت أو طورت وسائل الملاءمة التى تمكنها من اقتحامها .

وهكذا ظل الهواء المحيط والمغلف للأرض فى متناول الحشرات مثلا ، ولكنه مغلق دون الفقريات حتى استطاع بعضها فى مرحلة الزواحف من تطورها أن تصطنع عن طريق بعض التغيير قدرة على الانسياب أو الطيران .

وليس من الواضح تماما ما أدت إليه هذه الميزة الجديدة من قدرة فى المخلوقات التى استطاعت إليها سبيلا .

ومن الممكن أن تكون قد مكنتها من الهروب من مقتفى أثرها ؛ بأن ترتفع فى الهواء بهذه الطريقة الجديدة العجيبة ، وهكذا بإتقان جهازها للهروب استطاعت تلك المخلوقات أن تكتسب قيمة بقاء كافية منها بحيث مكنت نوعها من الاستمرار والازدهار .

والشواهد الحفرية توضح لنا أنه بمجرد حصول تلك المخلوقات على تلك القدرة وتلك الأجهزة فإنها لم تفقدها بعد ذلك أبدا . بل على العكس رأينا سلسلة طويلة من التحسينات فى النموذج الأصلى الذى أدى بدوره إلى عجائب باهرة تجلت فى طيران الطيور واقتحام بيئة أخرى .

إن الزواحف بصفة عامة تنوعت وتشكلت فى عدد هائل من الأشكال والأنواع انقرض معظمها الآن ولكنها كانت تمثل تجارب المخلوقات فى التأقلم والملاءمة لبيئات عديدة متنوعة المسالك والدروب والكهوف والمخابئ

وعلى الرغم من أن معظم تلك المخلوقات كانت تستجيب مباشرة للبيئة المادية فإن بعضها كان يبدو أنها تصطنع تأقلما وملاءمة نستطيع أن نسميها البيئة الحية أو عالم المخلوقات الأخرى التى تنازع معها السيادة على نفس الإقليم أو الكهف .

أما الحيوانات الثديية التى كانت صغيرة ضعيفة نسبيا فى مبدأ الأمر فإنها استطاعت تباعا أن تتفوق على الزواحف بسبب أنواع عديدة هامة وراقية من الملاءمة من بينها سلسلة من الأجهزة الفسيولوجية التى منحتهم استقلالا أكثر ، حيال تقلبات الجو المحيط بهم ، أكثر بكثير مما كان موفورا لدى أسلافهم . فقدرة الحيوانات الثديية على تنظيم درجة حرارة أجسامهم والاحتفاظ بها عند منسوب معين ــ سواء أسطعت الشمس أم لم تسطع وسواء أكان الوقت

صيفا أم شتاء ؛ هذه القدرة زودت الثدييات بميزة ضخمة . فعلى ضد الزواحف استطاعت الثدييات أن تعيش فى نطاق أوسع من الأجواء وفى مناطق عديدة وأن تعيش فى أى جو على الاطلاق .

وعلاوة على ذلك فإن التعديل الذى حدث فى قلوب الثدييات ودورتها الدموية مكنها من التخلص من نتائج التعب والمجهود بصورة فعالة ، وأن تزود أجسامها بالأوكسيجين وأن تمدها بالغذاء بشكل مجد .

ولقد أفضت تلك التحسينات الفسيولوجية إلى تمكين الثدييات من الاستمرار فى ممارسة أنواع راقية من النشاط على فترات أطول من الوقت مما زودها بميزة بارزة للبقاء عند الكفاح أو الصيد أو المعركة وفى مختلف الأزمات التى تواجهها .

ومن الصعب أن نقول شيئا فيما إذا كان ترك وضع البيض واستبداله بعملية حمل داخل الجسم كان له قيمة بقاء خاصة .

وكل ما يمكننا أن نتأكد منه أن الثدييات ـ بعد بعض التجارب فى هذا الصدد ـ تحولت تدريجيا وتباعا إلى حيوانات ولودة تلد صغارا عاجزة لا حول لها ولاقوة تحتاج إلى فترات مختلفة من مزيد من النمو والتطور قبل أن تصل إلى المستوى الكافى من النضج الذى يمكنها من أن تعتمد على أنفسها . ومن الممكن أن تكون تلك الطريقة للتكاثر ـ على نحو ما ـ ناتجا فرعيا أو ثانويا متسببا عن تغييرات أخرى .

وعلى الرغم من أنها ، كوسيلة للتكاثر ، تقوم على عامل الحماية والحصول على الأمان أكثر مما تقوم على الكثرة العددية ، فإنها أيضا تفتح الطريق أمام تمكينها من فترة ممتدة على أجل طويل من التطور .

إن عملية فقس الصغار من البيض تحدد زمان ومكان النمو وهو أمر يمكن تلافيه فى حالة التطور فى الحيوانات الولودة .

فإذا لزم للبيضة لكى تفرخ أن تحتضنها الأم تحت حرارة جسمها ، كان معنى ذلك أن استطالة فترة التفريخ تصبح مشكلة جدية .

واذا ما تركت عملية التفريخ لحرارة الشمس كان معنى ذلك أن تترك الأم بيضها للظروف فإذا ما اقتضى التفريخ فترة طويلة فإن ذلك يحدد وضع البيض فى مناطق جغرافية يكون الجو فيها مواتيا و يمكن الاعتماد على حرارته لفترة طويلة ممتدة من الزمان .

و بالإضافة إلى ذلك فكلما طالت فترة ترك الأم لبيضها زادت نسبة الخطر الذى يتعرض له البيض من مصادر مختلفة .

وهكذا يسمح الرحم المزود به جهاز الثدييات بما له من تركيب اسفنجى وأغشية مخاطية بفترة طويلة الأمد لنمو جنين معقد التركيب .

و بتطور الثدييات زادت فترة الطفولة لصغارها بما يسمح و يفسح المجال لاكتمال نمو الوليد و إتمام مافيه من نقص .

ومعنى ذلك كله :

أن قيود الوقت اللازم لعملية النمو قد رفعت وأصبحت الثدييات أ كثر تحررا ، وكذلك مقدرة على اصطناع أجهزة أ كثر تعقيدا .

وثمة ناحية أخرى ـ ما كان من الممكن التنبؤ بإمكانياتها ، ألا وهى التطور المصاحب لتلك العملية من رعاية الأمومة .

ذلك أن المولود الذى يولد فى حالة عجز أو مايشبه العجز يحتاج إلى رعاية تتميز بالإيثار والتكريس وإنكار الذات من قبل الأم . والقاعدة العامة أن رعاية الأمومة تتطور بتناسب مباشر بالقياس إلى عجز الوليد عن العناية بنفسه ، أى إنه كلما زاد عجز الوليد زادت رعاية الأمومة والعكس بالعكس .

فإناث السمك مثلا تختار مكانا مناسبا وتعده ثم تضع بيضها فيه وتنتهى مهمتها عند هذا الحد ، فلا تكاد تفعل شيئاً آخر لتتأ كد من سلامته .

وصغار السمك الذى يفقس لتوه من البيض ، ويولد بقدرة على العوم وعلى البحث عن طعامه ، لا يلقى من أمه أية معونة .

والدجاجة فى الفناء أو الطائر فى الشجرة كلاهما ينتظر ويعطى أسابيع عديدة لفقس صغاره التى تولد بحاجة إلى الحماية والمساعدة . ولذلك تظل الدجاجة أو الطائر أماً رءوما لبضعة أسابيع أو شهور.

ولكن فترة العجز قصيرة ولذلك لا تستمر رعاية الأم بالقدر اللازم. أما فى حالة الثدييات فالأمر يختلف لأن فترات رعايتها لصغارها تطول وتستمر فى أكثرها إلى سنين عديدة تتساوى فى عددها مع طفولة صغارها و ـ أو ـ أى ـ حاجتها إلى الرعاية والحماية .

والأمومة ومدى اعتماد الصغار عليها يصلان إلى أقصى حد فى تطورها عند الثدييات ، ولقد تناولت هذا الموضوع بشئ من التفصيل والإسهاب لأهميته الخاصة فى جوانب الثقافة ، وسأعود إلى معالجته بعد ذلك . ومن أواسط العصر الميسوزوكى (أى من حوالى ١٥٠ مليون سنة تقريبا) عند بدء ظهور الثدييات بدأت تصطنع ، كما فعلت الزواحف قبلها ، أنواعا مختلفة هائلة من الملاءمة والتأقلم لكل أنواع البيئات التى مكنتها قدراتها الجديدة من اقتحامها .

وبمرور الوقت استطاع بعضها أن يتقن مهارة الجرى ، وأن يكون أطرافا تشكلت على نحو ودرجة من الكفاية تعينها بها هذه القدرة بطرق مختلفة . وتطور بعضها إلى حيوانات تعيش على أكل اللحوم وتفترس غيرها من الحيوانات ، وأصبح بعضها من سكان الغابات ، واعتاد بعضها العيش فى الأجواء الباردة .

وبعض الثدييات حفرت جحورا تحت سطح الأرض كالحيوانات ذات

الفراء الكثيف ، و بعض الثدييات طارت فى الهواء كالخفافيش ، والبعض الآخر آثر العودة إلى البيئات المائية ولكنها عجزت عن استرداد قدرة أسلافها من الحيوانات التى تستطيع التنفس فى الماء ، فاصطنعت تعديلات فى أجهزتها لتنفس الهواء بحيث مكنتها من أن تتنفس فى وسط مائى .

وهناك فريق من الثدييات التى اقتصر ظهورها على العصر الأيوسينى فى بداية تقسيمه الثالث (أى منذ حوالى ٧٠ إلى ٧٥ مليون سنة) والتى غيرت اتجاهها مما باعد بينها و بين الملاءمة الأرضية أو الاقتصار على التأقلم لليابسة . فاتخذت من الشجر بيوتا وأصبحت أرقى أنواع الثدييات . والذى ميز تلك الثدييات الشجرية عن غيرها ، كالسنجاب مثلا ، أنها اصطنعت ذلك الأسلوب من العيش فى باكورة تطورها كحيوانات ثديية ، وقبل أن تعدل أطرافها الأولية وتمط أناملها تعديلا كثيرا ومطًّا طويلا .

ذلك أن المخلوق الثديى الذى يتعين عليه الجرى على الأرض يصطنع عادة فى التركيب العددى لقدمه أو يده درجة معينة من الاستقرار لتحمل الثقل . و يتم هذا على حساب مرونة العضو ككل .

وفى الحالات المتطرفة — كما هى الحال فى الحصان مثلا — تنتهى عملية

الاستقرار والثبات كميزة ملائمة للتضحية بالمرونة كلها ، وأصبحت نهاية مطاف الأعضاء حافرا قيّد هذا الحصان للمعيشة على الأرض إلى الأبد .

ولكن بعض الثدييات التى اقتصرت جزئيا فى عملية التضحية بالمرونة مازالت تستطيع تسلق الأشجار .

ولقد اتخذت هذه الطريقة للحياة واستطاعت التسلق باستعمال مخالبها كنوع من الخطاف تنشبه فى الشجرة ثم تسحب جسمها تصعيدا .

هذه الملاءمة الجزئية للحياة الأرضية أفقدت تلك المخلوقات القدرة على استعمال أيديها أو أقدامها كأعضاء لها مرونة الإمساك بالأشياء .

أما التوقيت فى حالة أرقى أنواع الثدييات فقد كان مختلفاً تماما ؛ ذلك أن أسلاف ذلك النوع من الثدييات اصطنع وجوداً شجريا فى مرحلة مبكرة على سلم تطورها وتمايزها كحيوانات ثديية ، على حين ظلت محتفظة بمرونة يدها البدائية .

فلكى تحافظ على توازن جسمها وهى قابعة على هواها فى الأشجار أو لتحركه على أحد الفروع الصغيرة ، فإن تلك المرونة والاستقلال الحركى بالأنامل أمكن استخدامها على أحسن وجه بالإمساك بالابهام والأصابع . وهذه القدرة ـ التى تبدو فى ظاهرها بسيطة إلا أنها كانت فى الحقيقة غير عادية ـ لا يمكن اعتبارها مبالغاً فى أمرها لأنها أدت مع مرور الوقت إلى نوع

من القدرة الحركية نصف المنتصبة ، مكنت تلك الحيوانات الثديية الراقية من الانتصاب الكامل ومن اكتساب قدرة الإمساك بالشيء بيد واحدة ، واستعماله كأداة تستخدمها حسب مشيئتها .

وقد كان للعيش على الأشجار تأثير عميق آخر على تلك الطلائع أوالبشائر من الثدييات التى سبقت وجود الإنسان .

فلقد اقتضت ضرورة القفز من فرع لآخر حتمية اكتساب قدرة عالية من حدة البصر وتقدير الأبعاد والمسافات لتلافى الكوارث ، ونتيجة لذلك طورت الثدييات الراقية قدرة بصرية من الجانبين بتحريك العين إلى وضع أمامى فى الوجه ، بل واستطاع بعضها أن يكتسب قدرة على تمييز الألوان .

ومن الجلى أن كل تلك التطورات ، مضافا إليها قدرة اليد على التقاط واختبار كل أنواع الأشياء ، كانت سلاحا بارزا من أسلحة التأقلم والتلاؤم ذا قيمة مميزة لتلك الثدييات ساكنات الأشجار .

ومع ذلك ـ فقد كان يندر أو يتعسر على تلك الثدييات أن تتطور على ذلك النحو مالم يزامل ذلك التطور تغييرات مصاحبة فى المخ وترق فى تركيب الغلاف الخارجى لأعضائها .

وتمثل تلك التطورات الثلاثة : التمدد فى المخ ، واليد القادرة على الإمساك بالأشياء والقدرة الكاملة على الانتصاب والوثوب ـ تمثل مجموعة ومزيجا من

القدرات والكفايات والمهارات لا تتوافر إلا فى أرقى الحيوانات الثديية ، وهى التى مهدت السبيل لجعل التطور الإنسانى ممكنا .

وعند ما اعتزل أسلاف الإنسان الحياة الشجرية مكنتهم تلك الصفات الخاصة بأرقى الثدييات من استغلال الحياة على الأرض بطريقة وبنجاح وتفوق لم يكن ليستطيع أسلافهم من أرقى الثدييات إليه سبيلا .

ولكن أسلافنا ـ فى أدائهم لذلك ـ تركوا أيضا استخدام أذرعتهم فى التنقل كما فعل أقاربهم من الثدييات ومازالوا يفعلون .

فقد نشأت قدرتهم على اتخاذ تلك الخطوات الانتصابية من قدرتهم على ملاءمة أجسامهم لوضع نصف منتصب اكتسبوه خلال ملايين السنين أثناء حياتهم على الأشجار حيث كان استخدام أذرعتهم فى التنقل يقتضى أن تكون أجسامهم فى وضع رأسى .

ولما وجد أسلافنا أولئك أنهم قادرون على الحركة والتنقل على الأرض وقد تحررت أذرعتهم من مسئولية التنقل ، فقد استخدموا أذرعتهم فى أغراض أخرى اصطنعتها أمخاخهم التى ارتقى تطورها نسبيا .

وعند هذه النقطة يمكننا تفسير ظاهرة التقدم عند أرقى أنواع الثدييات وعند الإنسان تفسيرا كافيا على أساس الملاءمة للظروف المادية التى كانت بالفعل

موجودة فى الطبيعة ، فهى عملية تهيئة وملاءمة بيئية للمساكن وأنواع الوقاء الأخرى التى اصطنعتها تلك المخلوقات فى بيئاتها الخاصة .

ومن الآن فصاعدا نستطيع فقط أن نفسر انبثاق الإنسان كملاءمة للثقافة التى خلقها هو بنفسه .

ولا يمكننا أن نجزم بالوقت الذى بدأ فيه الإنسان تلك التجربة الفريدة حيث إن الدليل الوحيد القائم أو الممكن هو ما نجده من آثار و بقايا وأرماس مازالت موجودة .

ومن الطبيعى أن الأشياء المادية وحدها هى التى تبقى آثارها ، وهذه لا يمكن التعرف عليها إلا إذا كانت تبدى علامات صحيحة كأدلة على سابق استعمال فى أغراض معينة أوتعديل مقصود لذلك الاستعمال .

وأول الآثار أوالمخلفات التى أمكن التعرف عليها من ذلك التاريخ السحيق فى القدم كانت الأدوات الحجرية ذات الأشكال البدائية التى وجدت فى طبقات الأرض التى قدر عمرها بمليون ونصف مليون من السنين ، والتى تدل على أنه وقت عملها كان الإنسان قد وجد بالفعل لفترة من الزمان .

ولست معنيا هنا بتتبع السجل الثقافى لعلم الآثار على الرغم من أنه ميدان شهى وجذاب ولكنى — على الأصح — أحاول أن أبرز حقيقة قوامها أن ظهور

الثقافة لم يصبح ممكنا إلا عندما بدأ الإنسان يستعمل و يصنع الأدوات استعمالا وصناعة مقصودين .

وإنه لايتأتى له ذلك إلا عن طريق يده التى تم له اكتمالها وإتقان قدرتها بعد أن ورثها من أسلافه من السلالات الثديية الراقية ساكنات الأشجار ، ثم حررها من وظائفها الخاصة بالانتقال باتخاذه وضعا انتصابيا ، ثم ضبط حركتها بمخه الذى زود بصفات تطورت طوال فترة طويلة من الدراسة فى الحياة الشجرية .

وكثير من الثدييات الراقية عندها القدرة والميل لاستعمال الأدوات اليدوية ، وبمهارة عبقرية .

ففصيلة الشمبانزى ــ التى سهل جدا إجراء التجارب عليها فى المختبر السيكلوچى ــ أظهرت على نطاق واسع فى مواقف متغددة هيئت لاختبار تلك المهارة قدرة على تقدير مشكلة وتحديدها ، ثم استخدام كل ماتصل إليه من صناديق أو عصى لحل المشكلة .

ويستطيع الشمبانزى أن يفعل ذلك أسرع وباستعداد أكثر من الحيوانات الأخرى ؛ لأن يد الشمبانزى ملائمة لتلك الأغراض .

ولكن لايوجد حيوان ــ حتى الشمبانزى المدرب بالصقل والمرانة ــ يستطيع أن يصنع آلات سوى الإنسان . إن هذه المهارة فى صناعة الأدوات

واستخدامها هى التى ترتكز عليها الثقافة أو هى القاعدة التى تقوم عليها الثقافة ؛ إذ على أساسها قامت التكنولوجيا وما تفرع عنها من صناعة وآلات ، بل إن مرد أعظم ماأحرزناه فى هذا الصدد راجع إلى تلك القدرة الأساسية التى بدأت فى حالة متعثرة منذ آماد بعيدة من الزمان .

فاستعمال الأيدى على هذه الوتيرة يخلق وسطا ثقافيا يمارس وظيفة أو إجراء مختارا له من الأهمية مالا يقع تحت حصر بالقياس إلى تطور المخ .

والمخ بدوره ــ فى مراحل تطوره ــ يسمح للأيدى بأن تؤدى من الوظائف عددا أكبر وأكبر من العمليات المعقدة .

وهكذا استقر نظام من التراسل ــ جيئة وذهابا بين اليد والمخ ــ فى وسط ثقافى هو حصيلة الاثنين .

ولكن الثقافة بدون لغة ضرب من المحال . فالتكنولوجيا هى مجرد جزء من الثقافة ، وكلما صارت الثقافة أكثر تعقيدا زادت الحاجة إلى الاتصال .

حتى التفكير نفسه كما قال سابير Sapir يعتمد على اللغة . وبناء على ذلك فإن القدرة على التفكير الرمزى والمجرد وهى ماتحتاج إليه اللغة ــ تؤثر تأثيرا بالغا فى المخ الإنسانى وفى الثقافة الوليدة التى اصطنعناها ، فإن الفرد العاجز عن استعمال يديه استعمالا فعالا لصنع الأدوات واستخدامها

والعاجز أيضاً عن الاتصال عن طريق اللغة ، فما لا شك فيه أن أمره سيكون بالغ العجز ، وعلى العكس من ذلك فإن المهارة فى عمل واستخدام الأدوات مع سهولة فى اللغة تجعلان أمر من يملكهما بالغ القدرة .

وهكذا تصبح الثقافة مناطا بيئيا يلائم الإنسان نفسه له .

وكلما تطورت الثقافة وتعقدت وازدادت كفايتها فى إحراز ميزات لأولئك الذين يعيشون فيها ، أصبح اختيارها أكثر دقة وتشددا بحيث تحذف أكثر فأكثر بمرور الوقت وتسقط من حسابها أولئك العاجزين عن التغيير معها والباقين على المستوى البدائى الذى نشأ منه النوع الإنسانى .

ولعله ليس من العجيب إذن أنه بعد مليون سنة من عملية كهذه أن يصبح الإنسان والثقافة شيئا واحدا لا تنفصم عراها . ذلك أن الإنسان قد لاءم نفسه طوال هذه الفترة الطويلة من الزمان لطريقة حياة لا يمكنه الاستغناء عنها .

أما الوقت اللازم لذلك التحول التطورى من مخلوق شبيه بالقرد إلى إنسان عاقل ، فإنه بالقياس إلى أمد الحياة عندما ينظر إليها بنظرة ورائية ، فقد كان الوقع والخطو بالغى السرعة . والتقديرات الموجودة لدينا لا تسمح بأكثر من مليون سنة منذ بدء ذلك التحول ، وهى جزء ضئيل من

الوقت الطويل الأمد الذى وجدت فيه الحياة العضوية على سطح هذا الكوكب .

و بمزيد من الفحص والاختبار وجد أن أكثر مايثير انتباهنا فى هذا التحول هو ماحدث فى الجمجمة فقط و بصفة خاصة فى حجم المخ .

أما فى بقية أجزاء الجسم الأخرى فالفروق الموجودة فروق أقل أهمية . فلقد زاد حجم المخ زيادة كبيرة أثناء التطور الإنسانى ، و يبلغ حجمه الآن ثلاثة أو أر بعة أمثال حجم مخ أكبر القرود الشبيهة بالإنسان، وهو الحجم الذى ر بما كان يساوى حجم مخ أوائل أسلافنا الشبيهين بالإنسان .

وحيث إن المخ هو مركز الذكاء ، والذكاء هو القدرة على التلاؤم للبيئة ، كما أنه رسول للثقافة ، فينبغى ألا ندهش إذا علمنا أن التطور الإنسانى قد تركز أكثر ماتركز فى هذا العضو بالذات .

سبق أن تناولت بالشرح ازدياد الأهمية فيما يختص بالثدييات ــ بصفة عامة ــ التى تطول فترة اعتماد صغارها على رعاية الأمومة ، وهذا الاتجاه واضح بصفة خاصة فى أرقى أنواع الثدييات ، ولكن يبرز أكثر مايكون فى القرود الإنسانية الكبيرة وفى الإنسان .

و إلى حد ما طبعا كلما كان الحيوان أكبر ، كانت مراحل نموه وتطوره بعد الميلاد أطول وتأخر نضوجه الجنسى .

فالفأر مثلا يتم نضجه الجنسى بعد فترة من ٣٩ إلى ٥٢ يوما طبقا للفصيلة التى ينتمى إليها ، والأرنب ينضج جنسياً إذا بلغ من العمر ٣ ر٥ إلى ٥ر٨ أشهر .

والثعلب بعد عام من مولده ، والبقرة العذراء بعد مدة عام إلى عام ونصف عام ، أما الفيل فلا يتم نضجه الجنسى إلا إذا بلغ من عشر إلى ثلاث عشرة سنة ، ولكن الحجم وحده ليس هو العامل الوحيد الذى يعزى إليه البطؤ فى نسبة التطور فى القرود الإنسانية وفى الإنسان .

يقول يركيز Yerkes إن أنثى الشمبانزى تصبح ناضجة جنسيا إذا بلغ عمرها ثمانى سنوات ، وهى أصغر بكثير من البقرة العذراء التى تزن من ٤٠٠ إلى ١٠٠٠ رطل ، والتى تنضج جنسيا فى ربع تلك المدة .

وأنثى الإنسان التى لا يزيد حجمها عن الشمبانزى إلا قليلا تنضج جنسيا فى حوالى سن الثالثة عشرة فى المتوسط .

وبالإضافة إلى ذلك ففى المجتمع الإنسانى يطول اعتماد الطفل وحاجته إلى رعاية الأمومة لأكثر من سبب ، وفى أكثر من ناحية . وتلك هى الظاهرة البيولوجية إلا أنها تهيىء فرصة بالغة الأهمية للتكيف الاجتماعى والتعلم اللذين بدونهما يصبح من الصعب تصور نمو الثقافة وازدهارها . وفى الحقيقة أننا نلمس ذلك فى خبرتنا الخاصة فى هذا الصدد .

ذلك أن عبء التعلم أصبح ثقيلا وكبيرا كلما أصبحت ثقافتنا أكثر تعقيدا ، بحيث إن أطفالنا لكى يحصلوا المعرفة والتعليم والتربية اللازمة يحتاجون إلى تطويل فترة اعتمادهم على آبائهم وأمهاتهم إلى مابعد نضجهم الجسمانى والنفسى بأمد طويل جدا .

لقد وصلنا إلى الحد الذى فيه لا نجد إلا قليلا من طلاب الطب مثلا — الذين يكملون تعليمهم وتدريبهم ونرخص لهم بمزاولة مسئولياتهم فى المهنة — قبل سن السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين ، وهو عمر يمثل قمة العمل الثقافى أو الاجتماعى فى المجتمعات الأكثر بساطة فى الوقت الذى يمثل فيه عندنا مجرد بداية للعمل . وما زلنا ننظر إلى شبابنا فى سن العشرين على على اعتبار أنهم مازالوا غير مهيئين لتحمل المسئولية كاملة ، مع أنه منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة فقط كانت أعظم الأعمال فى عصر اليزابيث تتم على يد شبان صغار فى تلك السن أو أصغر .

وفى باكورة أيام جمهوريتنا (الولايات المتحدة) لم يكن من المستغرب أن نجد قباطنة للسفن أو قادة لأخطر الحملات فى سن لاتكاد تتجاوز الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة إلا نادرا .

وقد يكون لقصر متوسط العمر فى تلك الأيام دخل فى تهيئة فرصة أكبر للشبان فى حياتهم .

ولـكن بصرف النظر عن التغير الذى حدث بالقياس إلى وضع العمر فى المجتمع فإن احتياجاتنا بصفة عامة تقتضى وتتطلب فترات أطول من التربية والتعليم عما كانت عليه الحال فى الأزمنة السابقة، وإذا كنت قد نوهت بأهمية الارتباطات بين التعقيد المتزايد فى الثقافة وبين تطويل فترات التعليم والاعتماد على الأسرة فما أنا بغافل عن المشكلة التى تخلقها تلك الظاهرة فى الثقافة .

هل نرجع تلك الموجة العاتية من انحراف الأحداث السائدة فى مجتمعنا إلى هذه الظاهرة ؟ ففى الوقت الحاضر يواجه أولادنا وبناتنا موقفا محيرا ، ففى الوقت الذى يشعرون فيه بمشاعر الـكبار ويصلون إلى درجة من النضج الجسمى والنفسى التى تؤهلهم لتحمل – على الأقل – بعض المسئولية ولتبوئ مكانة جدية فى المجتمع فإنهم يقيدون بوضع لايسمح لهم إلا بأضيق مجال لممارسة قدراتهم المنبثقة .

وفى المجتمعات البدائية يقوم المراهقون بدور أساسى فى حيـاة المجتمع ويلزمون بواجبات ويضطلعون بمسئوليات تلقى الاحترام والتقدير ، بل وغالبا ماتكون فى منتهى الأهمية والحيوية . لذلك لايشكل انحراف الأحداث عندهم مشكلة على النحو الذى نعرفه ، بل فى الحقيقة لاوجود له إطلاقا .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن طبعا أننى أقترح أن مشكلة انحراف الأحداث

فى مجتمع كمجتمعنا يمكن أن نعزوها إلى هذا العامل فقط أو نفسرها على هذا الأساس فحسب ، فانحراف الأحداث ظاهرة اجتماعية معقدة ولها جوانب أخرى ، ولكن الفجوة التى سبق لى شرحها تبدولى — على ضوء البينات الثقافية — عاملا هاما من بين تلك العوامل .

الثقافة فى عالم متغير

لقد حاولت أن أبين مفهوم طبيعة الثقافة بأن أرسم بعض أبعادها وأقتفى أثرا قليلا من تفرعاتها وتشعباتها .

ولقد اخترت أمثلة للطريقة التى تؤثر بها الثقافة فى حياتنا والطريقة التى أثرت بها الثقافة فى كينونتنا ذاتها التى أصبحنا عليها بالصورة التى آل إليها شكلنا الآن .

وحتى زماننا هـذا كانت الثقافة بحكم طبيعتها ذاتها مثل تيار الخليج، ينساب دائما وتباعا و بانتظام ، مؤثرا فى وجود وطبيعة الحياة فى كل مكان يحس به ، ولـكنه خفى عن العين الغافلة التى لا تعلم ، فمثل أعشاب البحر التى يجرفهـا تياره ، أو الأسماك التى تعمل جاهدة لتبقى فى نطاق منسوب درجة حرارته المعتـدل الذى تأقلمت فيه ، فـكذلك الإنسـان عمل جاهدا ــ ولا شعوريا ــ لـكى يبقى فى نطاق حدود ثقافته وتلاؤم نفسه لمطالبها واحتياجاتها .

ولقد فعل ذلك بدون مجهود ، أو بدون وعى مقصود ؛ لأن العملية كانت سبيلا طبيعيا .

إن اكتشاف الثقافة والوعى بأنها تشكل وتصوغ سلوكنا وقيمنا وحتى أفكارنا ، والإدراك بأنها تحمل فى طياتها بعض الحتمية ، كل ذلك يفضى إما إلى خبرة منيرة مضيئة ، وإما إلى خبرة تصيبنا بالذعر . بل ومن الممكن أن تكون خبرة خطيرة ولكن فوق ذلك كله فإن كل ذلك الانبثاق للثقافة مثل النموذج الذى يبدأ شكله فى الوضوح على شريط فيلم تصوير فى المحلول ، فإنه يخرج من ظلمات الخفى واللاشعورى إلى نور الواضح والوعى .

ولقد كان للوعى بالثقافة نتيجة ربما أمكن معرفتها والتنبؤ بها ، وما زالت رابضة فينا .

فلقد بدىء فى تفسير طبيعة الثقافة فى وقت كانت فيه حركة الاستعمار القديم العهد آخذة بأعظم همه ونشاطه ، وإبان مولد نظرية التطور وصياغتها . ولذلك نظر إلى الثقافة باعتبارها خاضعة لنمو ما ، مثل التطور العضوى كما أنها تعبير مرتبط على نحو ما بالهبات العقلية والشخصيات ، وعلى الرغم من أن تلك الفكرتين لا تتوقفان بالضرورة على بعضهما ، ألا أنهما بالفعل أصبحتا محبوكتين فى تشابكهما .

وفى أبسط لغة أصبح من المعتقدات المألوفة الشائعة أن ثقافة أى قوم تعكس بصورة دقيقة صحيحة قدراتهم . ويترتب على ذلك أنه يمكن تصنيف الشعوب

والثقافات على أساس نظام تصاعدى من أكثرها بدائية على أسفل السلم إلى أكثرها تطورا على أعلاه . وما كان أسهل ــ تحت الظروف التى أملت على الأوروبيين تسويغ استعمارهم ــ أن يستخدموا هذا الفرض لتحقيق أغراضهم . وقد كان عملا شاقا طويلا ومضنيا ــ لم يكتب له النجاح الكامل حتى الآن ــ أن يبين العلماء ويبرهنوا على أن كلا الفريقين ــ لا المستعمر والمستعمر ولا عاداتهم ــ يمكن نسجها على هذا النحو من خيوط تطوره .

فالتاريخ زاخر بالأمثلة التى ورث الأرض ومن عليها أقوام منحطون فى الثقافة ؛ وبالبرابرة فى أحد العصور الذين أصبحوا فى أعلى درجات التمدين فى العصر الذى تلاه .

فالإغريق والرومان والفرنسيون والألمان والبريطانيون كلهم كانوا يمثلون فى مرحلة معينة قوما غير متحضرين ولا متمدينين بالقياس إلى أسلافهم .

فالتطور الثقافى كما نعرفه الآن يتوقف على عدد من العوامل ، بعضها خارج عن إرادة وتحكم الأفراد فى ثقافة ما .

ولسنا على استعداد لتقويم شعب أو تثمينه بالثقافة التى يتصادف وجودها عنده فى الحاضر .

وعلى الرغم من التفسير الفرنسى فإن الثقافة تتغير ، وكلما تغيرت أكدت نفس الظاهرة . ولكن التغيير ــ بالإسراع فى خطوه ووقعه ــ يحول

نفسه من عمليــة أو سبيــل إلى عامل إيجابى ووسيط نشط قادر على تمزيق الثقافة ذاتها .

فالثقافة فى مراحلها الأولية تطورت ببطء جداً لدرجة أنها تبدو لنا عندما ننظر إليها نظرة ورائية أنها كانت تقريبا فى حالة جمود ..

فالعصر الباليوليثى القــديم ، الذى تمــيز باستعمال الأدوات الحجرية البدائية ، استمر لمئات الآلاف من السنين . وحتى تقسيماته التى تفرعت عنه كانت أطول من كل عصرنا التاريخى .

وبإدخال الزراعة والحيوانات المستأنسة فى العصر النيوليثى (الحجرى الحديث) المتأخر نتبين إسراعاً واضحا فى خطوات تغير الثقافة ثم زادت السرعة أكثر من ذلك فى العصرين البرونزى والحديدى .

واليوم نلمس فى مدى أجيال قليلة سرعة فى التغير الثقافى تفوق أى وقت فى الماضى .

فواشنطن وجيفرسون كانا أقرب إلى روما القديمــة منهما إلى عالمنــا الحديث . وما علينا إلا أن نقرأ قصص جين أوستن وترولوب وديكنز لــكى ندرك البون الشاسع فى التــكنولوجيا والعادات ، وتركيب الطبقات الاجتماعى ، والمثل العليا بين أيامهم وأيامنا .

وفى الجيل الماضى أو الجيلين الماضيين كان أثر السيارة وحده على طريقة حياتنا أثراً جبارا هائلا .

فقد غيرت السيارة من شكل مدننا تغييرا بالغا ، وزادت قدرة الأفراد على الانتقال ، وسهلت وسائل الاتصال زيادة وسهولة كبيرتين .

والمناطق التى كانت بعيدة ومعزولة أمكن اقتحامها . وقامت شبكة من الطرق تغطى البلاد ويقدر قيمتها ببلايين الدولارات . ونشأت صناعة واسعة أثرت فى اقتصادنا كله وتسببت فى انتقال عدد ضخم من السكان من منطقة استقروا فيها إلى منطقة أخرى للاستقرار فيها .

وأدى ذلك كله إلى إضافة خطر جديد للحياة يكاد يساوى خطر العمليات الحربية ، ونجم عن ذلك نمط جديد من السلوك بين شبابنا وصغارنا من الناشئة . وما سردته ليس سوى قلة من التغيرات التى نجمت عن اختراع واحد من الاختراعات الآلية ، ولكن تلك التغييرات تبين السرعة التى يتسم بها التغير الثقافى فى زماننا مع التوقع المباشر الذى ينتظرنا مستقبلا لسرعة فى التغير أكثر وأكثر. وكل هذا من طبيعة تطور الثقافة التى تنمو وتتطور وتنمو بالتراكم ، فكل اكتشاف أو اختراع يضاف إلى مجموع ناتج الحاصل الثقافى ويفتح الطريق ويمهده لاكتشافات جديدة ، وهذه بدورها توسع مجالات وميادين الاستكشاف وتدفع سرعة ازدياد التقدم المستحدث، وهذه

السرعة تتطلب كما رأينا نوعا من التعديل فى الثقافة يكاد يصيبنا بالدوار حتى نلائم خطونا لتلك السرعة .

وقد خلق ذلك فجوة خطيرة بين قوتنا الصناعية و بين ضوابطنا الثقافية. فالإمكانيات الكامنة فى حضارة ذرية أصابت بالذعر فعلا كثيرا من الناس المفكرين الذين يرون أن هناك استحالة فى أن يضعوا ثقتهم فى حكمة الإنسانية وقدرتها على ضبط نفسها لكى تتصرف فى تلك الحضارة الذرية بدون إحداث كارثة لسكان المعمورة وربما لكل حضارتنا القائمة .

هنا تكمن أعظم قضية تواجهنا وتتحدانا . إنها قضية الهوة والفجوة بين القوة والحكمة ، وهى مشكلة كانت دائما موجودة ولكن فى الماضى لم تكن القوة على هذا النحو الحالى وبهذه الدرجة من القدرة على التدمير الشامل ، فى الوقت الذى كانت فيه الحكمة أقدر على قمعها وضبطها .

وفى الماضى كان لدى الثقافة وقت أوفر لتلائم نفسها للأخطار، ولتتحكم فيها أو تكسر من حدتها وتقلل من شوكتها وتقلم أظفارها .

وفى الماضى أيضا كان الفشل فى حسم الخطر فشلا محليا ، و إذن كان يمكن استدراكه وإصلاحه ، ولكننا اليوم نواجه موقفا آخر ؛ فالهوة أوسع مما كانت عليه قبلا ؛ والفشل سيعم أرجاء العالم والنهوض من الكبوة سيكون محفوفا

بالمشكلات والمخاوف الناشئة من موقف كهذا تتجلى فى أنواع مختلفة من الأساليب والطرق . فمنذ سنوات قليلة راجت دعوة لوقف كل أنواع التقدم العلمى بدعوى أننا نحتاج إلى وقت نهضم فيه ماأحرزناه حتى الآن وما تم لنا خلقه وإنشاؤه . ويشعر كثير من الناس اليوم بحالة من القلق من جراء مايعتبرونه — ولهم بعض الحق فى تسويغ ذلك — موجة من الاضطهاد الفكرى أو مضادات التفكير فى طول البلاد وعرضها . هل هذا رد فعل ضد البلبلة والتوترات التى خلقتها تلك الهوة والتى يعتبر العلم مسئولا عن إحداثها ؟ ؟

أم هو نوع من التعب نتيجة لركضنا وملاحقتنا لسرعة التغيير ؟ ؟

إن حل تلك المشكلة ذات الأهمية البالغة يمكن إيجاده بتفهمنا للثقافة ؛ إذ لا يمكننا أن نأمل فى رؤية أى تغيير عميق فى طبيعة الإنسان بوساطة التطور العضوى ، لأن ذلك النوع من التطور بطىء . ولكن طبيعة الإنسان تتميز بمرونة جبارة ومقدرة رائعة بارعة على الملاءمة للمطالب والظروف الثقافية .

ولقد أصبحنا ندرك — ليس فقط الأثر العميق الذى تحدثه الثقافة فينا ، ولكننا أصبحنا نقدر أن الثقافة نفسها قابلة للتغيير والتعديل .

وفى الوقت الذى تتم عادة تلك التغييرات فى المجتمعات البسيطة ، إما بالمصادفة أو بدون تخطيط أو بدون سابق إنذار ، فإن الحاجة إلى درجة معينة من ضبط التغيير المقصود أصبحت ملحة كلما زاد تعقد المجتمع .

ولقد غيرنا فعلا حياتنا تغيرا جذريا باتخاذنا أنظمة للضرائب والضمان الاجتماعى والبرامج الزراعية وما اصطنعناه من وسائل أخرى فى حياتنا .

وحل المشكلة ليس بالضرورة تقليل الضبط والتحكم ، ولكنه إدراك أعمق وأكمل أن الثقافة هى أسلوب حياة برمته ، وأن تعديل جانب من جوانبها أو جزء من أجزائها قد يتسبب عنه نتائج وآثار بالقياس إلى المجموع لم نكن لنتوقعها أو لتدخل فى حسابنا .

الثقافة والتاريخ

إننا ضحايا الكلمات بدرجة أكثر مما ندرك غالبا .

ولكننا لا نفكر عادة فى ذلك لأننا بكل بساطة نتكلم معظم الوقت مع غيرنا من الناس الذين يشتركون معنا فى لغة مشتركة وثقافة مشتركة . والثقافة واللغة متداخلتان متشابكتان لدرجة أن كلامنا وتعبيرنا يزودانا بالوسيلة التى نتفاهم بها ونمضى فى حياتنا فى ثقافتنا على نحو كاف واف . فمثلا كلمة «البيت» تمثل لنا قيمة ومفهوما يعتبر جزءا مندغما ومتكاملا فى طريقة عيشنا لدرجة أننا لا نستطيع أن نتصور عدم وجوده أو فقدانه أو غيابه ، وإذا لم تكن لدينا تلك الكلمة فمن المؤكد أنه كان يتعين علينا اختراع واحدة . وكلمة «البيت» تثير فينا أعمق انفعالاتنا . وفى الحقيقة لقد ضحى آلاف الناس بحياتهم وماتوا لأسباب ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الكلمة . ولكن هناك أقواما كثيرين غيرنا يعيشون فى هذا العالم لا توجد عندهم تلك الكلمة ولا ما يوازيها لأن المفهوم معدوم فى ثقافاتهم .

فإذا استبدلنا كلمة « البيت » ووضعنا مكانها كلمة منزل أو أسرة فإنهما لا تحملان لنا نفس المعنى الذى تحمله كلمة « البيت » ، ولهذا السبب كانت الترجمة من لغة لأخرى فى بعض الأحيان من أشق الأمور وأصعبها وتصبح

الصعوبات ثقيلة فى هـذا الصدد إذا كانت اللغتان تمثلان ثقافتين ليست لهما تقاليد مشتركة .

ويمكننا أن نضرب مثلا للمشكلات التى تتضمنها تلك الصعوبة فى الترجمة من لغة إلى لغة أخرى ، تمثل كل منهما ثقافة مختلفة عن الأخرى بكلمة «مانا» عند أهالى جزائر المحيط الهادى شرقى استراليا الذين يسمون بالبولينيزيين .

فهذه الكلمة لها روابط انفعالية كبيرة عند البولينيزى خارج نطاق خبرة الأوروبى الذى ليس عنده فى أفكاره كلمة تقابلها .

فالكلمة عند البولينيزيين تحمل ـ فوق ماتحمله من معانٍ أخرى ـ فكرة عن نوع من القوة أو الفضيلة التى تكمن فى أفراد معينين ، أو حيوانات معينة ، أو أشياء معينة ، وأن تلك القوة أو الفضيلة تكاد تكون جوهرا قائما بذاته لاسبيل إلى ضبطه أو التحكم فى أمره . وأن هذا الجوهر قد يكون نفيسا أو مقدسا ويحتاج إلى عناية خاصة تحفظه من الدنس .

والفكرة ذاتها وماتحويه فى طياتها من تركيبة معقدة من الأفكار غريبة عن أفهامنا وعن طريقة تفكيرنا ؛ لأنها تقع تماما خارج نطاق ثقافتنا .

وبناء على ذلك فليس لدينا كلمة تعبر عنها ويتعين علينا استعمال الكلمة البولينيزية مثلما نستعمل كلمة Toboo (المحرم أو اللامساس) ولقد جاهد علماء

الأنثروبولوجى لسنوات عديدة كى يفهموا تلك الكلمة بالضبط ويدركوا مدلولاتها الانفعالية العميقة إدراكا شاملا .

وكلمة الثقافة — على النحو الذى أستعمله — أحيانا ماتكون فى مثل هذا الوضع ، فحتى تم اكتشاف المعنى الذى تمثله الآن على الأقل بين علماء الأنثروبولوجى لم يكن من الممكن أن تدخل فى تفكيرنا عن أنفسنا وعن طريقة حياتنا وعن سلوكنا . أما إلى أى حد تمتد قيمتها فأمر لا يمكن تقريره إلا باختبارها فى مجالات ومحتويات مختلفة متعددة .

والذى أعنيه هنا هو أن نطبق بعض جوانب التحليل الثقافى — كما صاغه علماء الأنثروبولوجى على طريقة أخرى مختلفة من طرق تفكيرنا عن أنفسنا — ألا وهى التاريخ [١] .

يوجد فرع من التاريخ يعرف « بتاريخ الثقافة » له معنى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، يختلف فى أهميته ومدلوله عن كلمة مشابهة فى الألمانية

(١) إننى مدين للدكتور دونالد يونج لأنه لفت نظرى لتقرير لجنة السير التاريخية الذى نشره مجلس بحوث علم الاجتماع تحت عنوان « العلوم الاجتماعية فى الدراسة التاريخية » — نشره رقم ٦٤ سنة ١٩٥٤ وكنت قد انتهيت من كتابة هذا الجزء من الكتاب عندما جاءتنى تلك النشرة . ولذلك كان من دواعى اغتباطى أن أجد نفسى على اتفاق مع اقتراحات اللجنة الخاصة باستخدام وانتفاع وإفادة المؤرخين بعلم الأنثروبولوجى بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية الأخرى .

هى Kulturgeschichte ذلك أن الألمان يركزون اهتماما أكثر فى تاريخ الثقافة على الآداب والفنون ـ وفى بلادنا هذه نحن أيضا نضمن فى ذلك الفرع ليس فقط تلك الجوانب من المدنية ، ولكن دراسات أخرى لأوجه نشاط ومؤسسات أقل رفعة ، ولكنها أجزاء وثيقة الصلة والارتباط بمعاشنا اليومى .

فطبيب القرية ، وصاحب المتجر ، ووسائل السفر ، وأوجه أخرى مختلفة للحياة ، هى موضوعات أو مسائل أصبح من المألوف لنا أن نضمنها فى تاريخ الثقافة . إن اتساع مدارات ومحاور الاهتمام فى التاريخ بحيث لم تعد تقتصر على المدارت والمحاور التقليدية يعتبر أمرا بالغ الأهمية ودالا على تطور هام ينعكس فى تلك النواحى التى أضيفت إلى ميدان التاريخ ، ولكنه مع ذلك لا يستخدم الثقافة فى أوسع معانيها الأنثروبولوجية وأكملها .

وهنا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام أمر مزعج مرده إلى اتخاذ كلمة نستعملها فى مجال متخصص فى الوقت الذى تروج للكلمة فى حد ذاتها استعمالات واسعة. وحيث إننى غير قادر على اقتراح بديل للكلمة خال من اللّبس أو الافتعال والابتداع، فسأستمر فى استعمال كلمة ثقافة كما سبق لى تفسيرها وتحديدها .

وجوهر الثقافة هو النمط. ومعنى ذلك أن الكل أكبر من مجموع الأجزاء ، وأن الأجزاء لا يمكن تفهمها حقا إلا بالقياس إلى الكل .

وعلى الرغم من أن عالم الأنثروبولوجى ـ لأهداف خاصة ـ قد يفحص خيطا واحدا من نسيج ثقافة ويقارنه بأضرابه فى ثقافات أخرى ، فإنه دائما على وعى حاد بكونه ليس إلا خيطا واحدا فى نسيج كلى .

أما النسيج الذى يلتحم فيه الخيط والنموذج الذى يكونه مندغما مع عناصر أخرى فى الثقافة ؛ فهذا له دائما الاعتبار الأول والمقام الأساسى . وعلى ذلك فنى التفسير الأنثروبولوجى يرتكز تاريخ الثقافة على نمط الحضارة أو نموذجها ككل ، وعلى هيئتها أو صورتها التنظيمية .

وإذا قدر للتاريخ أن يستخدم الثقافة ويفيدمنها فى معناها الأنثروبولوجى فيتعين عليه أن يكون حساسا كذلك لمضامين عملية التغيير التى هى وليدة الثقافة . وعادة مايوصف النمط أو النموذج بالقياس إلى فترة معينة من الزمان ، وعلى هذا الأساس نتكلم عن نمط الحياة فى مجتمع إقطاعى . وعندئذ تتكون فى أذهاننا ـ مع أشياء أخرى ـ صورة عن أشكال المؤسسات وأنواع السلوك والأفكار السائدة وعن اقتصاد وصناعات ذلك المجتمع ـ ثم نضيف إلى أولئك التطورات الخاصة التى تقتصر على تلك الفترة وعلاقات بعضها بالبعض الآخر ، وكيف أثرت كل منها فى غيرها ، ثم الهيئة أو الصورة العامة الكلية التى نشأت منها جميعا والتى ميزت تلك الثقافة عن غيرها بميزات خاصة تجعلها فريدة بين غيرها من الثقافات .

ولكن هذا الوصف يفضى إلى نسق جامد و إلى وضع ثابت واقف يظلم مفهوم الثقافة عند عالم الأنثروبولوجى . ذلك أن عالم الأنثرو بولوجى ينظر إلى النمط الثقافى على اعتبار أنه اتجاه ، لا على أنه نموذج قد تم إنجازه ، وعلى أنه نسق وليد ظروف معينة تتحرك تجاهه العناصر المختلفة ولكنها لا تتم الوصول إليه تماما . فهى إذن فى حالة صيرورة ، لأن الثقافات لن يكتمل توازنها بالتمام والكمال .

فالنمط إذن عملية أو هو نوع من العمليات .

وعالم الأنثروبولوجى يستطيع أن يفيد من معرفته بالنمط كأداة مرشدة يتنبأ بها تحت ظروف معينة . فهو يتوقع أن ذلك النمط سيشكل ويدمج أفكارا جديدة فى هيئته القائمة . أو على العكس قد يلاحظ كيف أن الأحداث الاقتصادية مثلا قد تغير نمط الثقافة ، وكذلك تغير السبيل الذى تنتهجه لاكتمالها وتحقيقها .

وتدخل العملية أيضا فى حساب عالم الأنثروبولوجى واعتباره عندما يدرس الثقافات فى صلاتها أو صراعها بعضها مع البعض الآخر . وتحت تلك الظروف قد تصاب سبل الحضارات ومناهجها بالخلخلة ، أو قد تعيد توكيد أنظمتها على نفس الهيئة ، أو على نحو يخالفها قليلا ، أو قد ينتهى

الأمر بتفتتها وانبثاق سبل ومناهج وأشكال جديدة . وقليلا مايفطن عالم الأنثروبولوجى إلى حالة التشبع الحادث فى نمط الثقافة وإلى تجدده على أساس عملية جديدة للتطور . لأن عالم الأنثروبولوجى معنىٌّ فوق كل شئ وعلى وعى عميق باستمرار التغيير . هـذان المفهومان للنمط والعملية قد أمكن الوصول إليهما بالطرق المقارنة ؛ فعلم الأنثروبولوجى بين كل العلوم الاجتماعيـة ، وبطبيعة مادته ، يقوم على نظرة عالميـة ، وعلى مقـارنة ثقافة بغيرها . .

وبالبحث عن مادته فى الشعوب البدائية فإنه وجد حقائق ليست لها قيمة إلا إذا أمكن تطبيقها على نطاق واسع ، وإلا إذا استخلصت منها بينات وبصائر صالحة للتطبيق فى مجالات أوسع من الثقافات الغامضة ذاتها التى كانت موضوع بحث الأنثروبولوجى . فحب الاستطلاع الطبيعى عمن سبقونا الذى يكسو القصص التاريخى البسيط بالروعة والافتتان لم يكن من بين صفات الشعوب والأقوام التى شغل علماء الأنثروبولوجى أنفسهم بالبحث فى أمرها ودراستها .

فنذا الذى كان يجد عنده الشغف أو الوقت لقراءة تاريخ علمى شامل لقبائل « البمبا » Bemba مثلا لو أنها كتبت مثل كل تاريخنا القومى على نحو محلى قصصى بحت ؟

ولكن إذا كانت ثقافة « البمبا » وخبرتها تلقيان ضوءا على طبيعة الثقافة بصفة عامة والطريقة التى تتطور بها « وتنمو » ووظائف وعلاقات العناصر المختلفة المكونة لكل ثقافة ، فإذن من الممكن أن تزودنا « البمبا » بمادة علمية وحقائق تستحق جهد ووقت أى باحث .

ولكن ذلك لا يمكن تقريره إلا بالتجميع المنظم لثقافات كثيرة ومقارنتها بعضها بالبعض الآخر . وهذا بالضبط ما فعله علم الأنثرو بولوجى عينا .

لذلك كان من الممكن للأنثروبولوجى أن يقر بتفرد وفذاذة كل ثقافة من وجهة نظر تاريخية ، ومع ذلك ترى فى كل الثقافات ظاهرة لاتجاهات ومبادئ مشتركة مما يفضى إلى قيام و بناء نظرية شاملة بالغة الدلالة ــ صالحة التطبيق على مجتمعنا ، لأنها تتميز بالتكامل والإحاطة .

وكانت هذه هى الأسباب التى حدت بى إلى التفرقة بين تاريخ الثقافة كما يشيع فهمه اليوم وبين نوع تاريخ الثقافة الذى قد ينشأ من استخدام مفاهيم الثقافة التى اصطنعها وطورها علم الأنثرو بولوجى .

فالثقافة ــ كما يراها عالم الأنثرو بولوجى ــ والتاريخ لا يرتبطان معا عادة فى عقولنا . وربما يبدو لأول وهلة أن الارتباط بينهما ضئيل إن لم يكن معدوما . وعلى الرغم من خطورة التعميم فى ميدان على مترامى الأطراف

كالتاريخ فإننى أجرؤ أن أقول إن قليلا من المؤرخين من كشف فى كفاياته عن أى إلمام بالمبادىء التى استطاع علماء الأنثروبولوجى أن يستخلصوها و يعتصروها من المادة العلمية والحقائق التى جمعوها من الثقافات . وصحيح طبعاً أن المؤرخين قد تزايد وعيهم و إدراكهم للمحتوى الثقافى ، إذ ما كانوا ليكونوا مؤرخين إن لم يغرقوا لآذانهم فى جانب ما من جوانب الثقافة ، ولكن تلك مسألة أخرى تختلف عن تطبيق التاريخ لتعميمات مؤسسة أومرتكزة على عمليات ثقافية .

وأكاد أجزم بأن جزءا من الجواب راجع إلى الاكتشاف الحديث نسبيا للثقافة و يعزى إلى التصريحات الأكثر حداثة التى أعلنت نتيجة للبحوث والفحوص والاكتشافات الأنثروبولوجية ، ذلك أن التاريخ كان دائما فى تطوره فائق الحساسية حيال الأنماط الفكرية ، بل وحتى الأنماط الثقافية للعصور المختلفة . وكون التاريخ قد شغل نفسه بالكنيسة ولا شيء سواها (إلا قليلا) ــ من عصر سانت أوجستين حتى نهاية القرن الرابع إلى قرون ماجدبرج الخاصة بعصر الإصلاح ــ فإن ذلك الاهتمام أو الاقتصار ينسجم تماما مع دور الكنيسة الطاغى الذى لعبته فى ثقافة تلك الحقبة .

ومن المصادر الأخرى المكونة للتاريخ الحديث كانت الأخبار السنوية المتتابعة وأسفار وسجلات الأديرة حيث كانت هى الأخرى حافلة بشئون الكنائس .

وقد ظهرت أيضا التقاليد الأرستقراطية للنظام الإقطاعى فى الإشارة العريضة فى تلك الأسفار والسجلات إلى مغامرات النبلاء وفتوحاتهم .

ولكن ذلك الجانب من الحياة الإقطاعية قد انعكس وصور بشكل بارز فى الاهتمام البالغ للمنشدين الشعراء الذين اقتصروا على الإشادة بأعمال الجرأة وفتوحات وغراميات ومآسى الطبقات الحاكمة .

و إنشادالشعراء كان أيضا نوعامن التاريخ على الرغم من أنه كان شفويا .

وربما يغرينا ذلك بأن نرجع إلى تلك المصادر والأصول إصرار المؤرخين الطويل وتركيز اهتمامهم على الملوك والملكات حتى بعد أفول نجمهم وزوال سلطانهم، وحتى بعد أن أصبح بعض المؤرخين على بينة من أن المعول فى التاريخ قليلا ما كان يتأثر بالشخصيات الملكية أو الأرستقراطية، ولكن التقليد لايموت بسهولة . ولقد فتل كارليل خيطا آخر بنظريته عن دور البطل فى التاريخ .

ولعل أثر الوسط الثقافى فى التاريخ لايتضح لنا فى أى إنتاج آخر ، مثلما هو فى أعمال ومؤلفات ما كيافيلى .

ونظرا لأنه كان يعيش فى أواسط عصر النهضة عندما كانت للقوة الدنيوية اليد الطولى وعندما سادت تلك القوة وقامت بدور رائع بارع ـ فإن مؤلفات ما كيافيلى أقرت بذلك التغير العميق وسبرت أغواره فى المجتمع ثم ساعدت على خلق آفاق جديدة وأوسع للبحث التاريخى .

وإحياء تراث العالم القديم ، الذى بدأ فى عصر النهضة واستمر يورث فى الأفكار الأوروبية طوال الأربعمائة سنة التالية أو أكثر ، وجد مقابلا له فى نوع الاهتمام والشغف بالتاريخ الذى أنجب المؤلفات الخالدة للمؤرخ جيبون .

وبدأت الثورة الفرنسية ـ التى ركزت اهتمامها على الدساتير ـ الاتجاه المعروف لدينا الآن بالتاريخ الدستورى . ولقد نشطت الحركات القومية فى القرن التاسع عشر والصراع الاقتصادى فى عصر التصنيع ، وأثارت اهتمام المؤرخين بالبحث والدرس فى تلك الميادين . ولقد عكست تواريخ الفنون والآداب والعمارة والعلوم اتجاهات مشابهة .

ويمكننا أن نطيل فى سرد القائمة ولكنها قائمة تطول وتطول لدرجة أنها تبين الاتجاه المستمر الدائم للتاريخ لكى يوسع مجاله ومدارات بحثه فيشمل مزيدا أكثر وأكثر من مؤسسات المدنية .

وعلى الرغم من أن التاريخ قد وسع ميادينه ومحاور ومدارات اهتمامه بدرجة كبيرة إلا أنه ظل بالقياس إلى محترفيه وممارسيه نوعا من الفن القصصى . فالشخصيات التاريخية التى لعبت أدوارها على مسرح التاريخ وأدوارها التى تكاد تكون مسرحية وليدة تلك الشخصيات وصراعها واحترابها من أجل النفوذ السياسى ونمو المؤسسات وتطور الأمم ـ كل ذلك زود المؤرخين بمبرر كاف لمهارتهم وحذقهم للفن القصصى .

فكم من كتب التاريخ مثلا التى قرأنا عن القرن التاسع عشر فى انجلترا خاصة بالوزارات والحيل السياسية والملوك والملكات والحروب وقوادها ؟

أما المؤرخون الأكثر جرأة فكانوا يضيفون ـ كرها ـ فصلا أو فصلين عن الفنون والآداب أو حتى بصيصا ضئيلا من الظروف الاقتصادية . وحتى الموجز الضخم المكون من مجلدات عديدة الذى أسهم فيه علماء متخصصون فى كل فرع ، والذى يشمل عديدا من الموضوعات ، حتى هذا الملخص يقدم لنا وجبة دسمة وأكلة ثقيلة لا يستطيع أحد لها هضما .

فعلى الرغم مما بذل فيه من مجهود فى البحث التاريخى وتمحيص الحقائق ، فقد أغفل ذكر العمليات الثقافية الأساسية التى بدأت تتشكل فى انجلترا والتى أثرت فى طريقة حياة انجلترا ، تأثيرا ثوريا عميقا يفوق تأثير الحرب الأهلية الدموية . والحقيقة أن التاريخ قد خضع فى تطوره لقوتين واضحتين متضادتين :

١ ــ القوة الأولى

التقليد الأدبى الذى أنتج بعض الروائع الخالدة للحضارة الغربية . فتاسيتوس وثيوسيديدس وهيرودوت وجيبون يحتلون أياً كنهم بين العظماء

فى الأدب كما هو فى التاريخ . وهـذا التقليد مازال حتى اليوم عاملا يحتل مركز السيادة ، إذ لا يأبه بالاهتمام العلمى فى التاريخ إلا قليلا ، أو لا يهتم به مطلقا .

ولقد أعلن المرحوم جيمس هارفى روبنسون وهو من قادة هذا الجناح فى الرأى أنه ينبغى على التاريخ ألا يتطاول إلى ذلك الطموح العلمى ، لأنه بحكم طبيعته ذاتها لا يمكن معالجته أو تناوله تناولا علميا .

ويرتكز هذا الرأى ـ جزئيا على عقيدة قد تكون صحيحة ـ قوامها أن الحقيقة التاريخية لا يمكن أن تكون إلا تقريبية فقط على أحسن الفروض وأن الحقيقة المطلقة فوق طاقة أو متناول المؤرخ .

ثم إن هـذا الرأى يرفض العلم على أساس أنه يتعارض مع الطبيعة الفريدة للتاريخ . ومن رأى ادوارد ماير ـ وهو رأى يشاركه فيه معظم المؤرخين ـ أن كل تاريخ يمثل استمرارا موصولا للأحداث فى علاقات سببية . وكما صورها فيكو المؤرخ الإيطالى العظيم بقوله : « إن كل عصر هو مشتل للعصر الذى يليه . ويترتب على ذلك إذن أن كل تاريخ هو من نوع خاص لا يشبه غـيره ولا يعيد نفسه ـ وخلاصة القول أنه فريد ـ فذ ـ فى حد ذاته » . وعلى الرغم من أننا نقول إن التاريخ يعيد نفسه لا أن

المؤرخ فى نطاق وجهة النظر هذه لا يميل إلى الاعتقاد بهذا القول الشائع أو الأخذ به ، فهو ينظر إلى كل تتابع تاريخى على حدة ، باعتباره يمتاز عن كل ماعداه ، ولهذا لا يمكن مقارنته بغيره مقارنة تطابق أو على وجه التمام . وحيث إن العلم يقوم على تكرار الظواهر وإمكان مقارنتها بعضها بالبعض الآخر ، فيبدو أن التاريخ واقع خارج نطاق التبعية للعلم ، وأنه أعفى نفسه من خدمته .

٢ — القوة الثانية

والقوة الثانية التى خضع لها التاريخ فى تطوره كانت إباحة استعمال الحقائق التاريخية والافادة منها للتدليل على نظرية أو فكرة أو رأى .

وليس فى هذا الأمر جديد ، وإن كان أحيانا يبدو لنا كما لو كان جديدا . وفى الأزمنة الحديثة بذلت جهود شهيرة عجيبة فى هذا الصدد . فكارل ماركس مثلا فى كتابه رأس المال فسر الحقائق الاقتصادية والاجتماعية لكى يطور التاريخ للعمل الثورى والاجتماعى .

وثمة محاولات أخرى من هذا القبيل بذلت ولكن قليلا منها ما كان موضوعيا أو علميا — والأدهى من ذلك أنها أدت إلى وصم التاريخ العلمى بسمعة سيئة .

صراع الثقافة فى أيرلندا

لقد اتضحت لنا حقيقة هامة تجلت فى كتابات بعض المؤرخين المحدثين ، قوامها أن عددا من المؤرخين قد أصبح منتبها إلى أهمية المادة العلمية الثقافية المتجمعة بعد أن أخذت شباك البحث التاريخى تمتد وتغوص ، ووجد المؤرخون فى شباكهم صيدا من السمك الغريب ما كانوا يعتبرونه قابلا للهضم قبل ذلك ، وما كانت معـداتهم لتقوى على امتصاصه ، بل لم يكن حتى مستساغ المذاق .

وثمة مثال يكاد يكون مفصلا تفصيلا ليبرهن على وجهة نظرى ؛ وهو تاريخ محاولات الإنجليز غزو ايرلندا فى عصر اليزابيث ، كما ورد فى كتاب أ . ل . روز الذى نشر حديثا .

ففى كتابه « توسع انجلترا فى عصر اليزابيث » يجمع روز بين التذوق الأدبى والتاريخى لشخصيات ذلك العصر ، و بين الشعور الحى العميق بالمكان والزمان والثقافة .

وقد يكون ذلك راجعا جزئيا إلى أنه شغل نفسه وكرس مجهوده قبل ذلك للكتابة عن تاريخ كورنوول التى ينتمى إليها بالمولد والنشأة .

ولكى يعطى الكاتب الصورة المميزة لكورنوول ليتعين عليه حتما أن يقارنها ببقية انجلترا وأن يشرح أسباب اختلاف كورنوول عن غيرها من مناطق انجلترا وأن يبرز النكهة الخاصة التى تزكو فى آثار الثقافة المحلية التى تجعل لتلك المنطقة ذلك الطعم الخاص .

وعلى أية حال فإن روز حساس للعوامل الثقافية فى التاريخ بدرجة ملحوظة جديرة بالتنويه . وفى الوصف التالى لايرلندا سأقترض الكثير من روز .

ولتوضيح إحدى الطرق التى يستطيع التاريخ أن يفيد بها من الخبرة الثقافية ـ فإن الصراع بين الإنجليز والايرلنديين يزودنا بمثال طيب .

والموقف يتسم بكثير من الخصائص التقليدية لصراع الثقافة ؛ وهى ظاهرة معروفة جدا لدى علماء الأنثروبولوجى الذين استطاعوا بالملاحظات المقارنة استنباط اتجاهات مشتركة حينما ينجم هذا الصراع .

فإذا نظرنا إلى أحداث ايرلندا فى ضوء هذا الاتجاه ، فإن معانى تلك الأحداث تصبح أكثر عمقا ، وتزودنا بتفسير أكثر إقناعا لما أفضت إليه تباعا ، أكثر مما يمكن أن يزودنا به السرد المألوف الشائع لأحداث التاريخ .

ففى القرن السادس عشر كانت الفجوة بين انجلترا وايرلندا آخذة سراعا فى الاتساع ؛ ذلك أن انجلترا فى مدى الأربعمائة أو الخمسمائة السنة التى سبقت

القرن السادس عشر تعرضت لتغييرات عميقة مردها إلى أنها كانت تعيد تنظيم تركيبها الاجتماعى والثقافى طوال تلك الفترة .

وفى نفس الوقت وصلت إلى وحدة سياسية ونوع من المركزية أسهمت بنصيب كبير فى اتجاه وسرعة التغيير .

فازدهار اقتصادها واتساع نطاقه جلب ثروة متزايدة للبلاد ، وفى نفس الوقت . . . تنشيط التجارة الداخلية والخارجية ـ فتح لانجلترا المزيد من الاتصال الداخلى وخارج حدودها .

وبالاختصار أصبحت انجلترا دولة حديثة وصلت إلى نمط حديث من المدنية ، وبدأت تتمتع بتلك العضلات الجديدة التى خلقتها تلك التغييرات كلها .

وتبدت الوفرة والشعور بالقوة اللذان يصاحبان عادة المراحل الأولى لكل دورة جديدة من النشاط الجم الذى ميز عصر اليزابيث .

وقد حدثت نفس الظاهرة فى إيطاليا فى مرحلة أسبق من ذلك العصر الإلزابيثى بقليل .

ونفس الظاهرة تجلت فى الصين من وقت لآخر . أما فى زماننا هـذا فالظاهرة واضحة أمامنا فى الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا . فمنذ أربعمائة

عام مضت إلا قليلا انبثق فى انجلترا هـذا النشاط الثقافى وتجلى فى أدبها الفذ المشهور ، ومجتمعها المتألق ، ونشاطها البحرى الذى لم يسبق له مثيل . وكان لنجاح الاسبانيين والبرتغاليين الساحق الذى يكاد يشبه الخرافات فى الاستيلاء على أقاليم جديدة ، وإنشاء طرق تجارية ، وامتلاك أموال وثروات بلا جهد أينما حلوا وحيثما استطاعوا ـ كان لذلك كله رد فعل عميق عند الإنجليز وقد بلغوا ذلك الشأو البعيد من النشاط ، فقد أثار نجاح الاسبان والبرتغاليين حقدهم المقرون برغبة فى اقتحام الحلبة والفوز بنصيب الأسد .

وكان الإنجليز فى عصر اليزابيث يواصلون البحث فى اتجاهات مختلفة عن عوالم جديدة للغزو ، ولم يكن يفصلهم عن ايرلندا غير ذلك البحر الضيق، ومع ذلك فقد كان الفرق بين الثقافتين فرقا كبيرا يندر وجوده على هذه الصورة بين أى بلدين آخرين متجاورين هذا التجاور .

فقد كانت ايرلندا مازالت قابعة فى أواخر العصر [النيوليثى] مع بعض أشكال وأنغام العصرين البرونزى والحديدى فى تطورها التكنولوجى .

وكانت حياتها أساسا تمضى على نمط مشابه لغيرها من الشعوب الكلتية، ومعنى ذلك أنها كانت تقوم ـ بالإضافة إلى أشياء أخرى ـ على مجتمع قبلى أو منظم على أساس الأنساب ، وكانت القبائل أو العشائر تسمى سپتس Septs

فى ايرلندا ؛ وهى التى تمتلك الأرض . وكانت العضوية أو الانتساب لإحدى تلك القبائل هو الذى يعطى الفرد الايرلندى أى حق فى امتلاك الأرض . ولكنه لا يستطيع أن يشترى أو يبيع الأرض التى انتفع بها ـ يستوى الأمر فى ذلك سواء أكان الأمر متعلقا برئيس القبيلة أم أى عضو آخر فيها ـ إذ كان من حقه فقط أن يتملك الأرض طوال حياته ، وألا تتعدى حقوقه الشخصية حدود ملكيته الخاصة .

تلك الأفكار عن الملكية كانت صرخة بعيدة عن أفكار الملكية الخاصة ، أو النفوذ والسلطات الواسعة التى يتمتع بها السيد فى إقطاعيته ، والتى كانت مألوفة لدى الإنجليز . أما اقتصاد ايرلندا فقد كان مختلفا عن حالة الاستقرار الزراعى التى تطورت فى انجلترا ؛ فلم يكن لحياة القرية المتماسكة التى اتسم بها الريف الإنجليزى مايقابلها أو يماثلها فى ايرلندا ، وبدلا من ذلك كان الايرلنديون يعيشون حياة قوامها التنقل من مكان لآخر ، والرعى حيث تنتقل العشيرة كلها أو القبيلة كلها ، أو مجموعة من القبائل فى المجتمع الواحد وراء ماشيتهم إلى الجبال من أجل الرعى الصيفى . وكان امتلاك البقر هو دليل الثروة . واستعمل البقر كنوع من النقد فى التعامل .

وفى مثل ذلك المجتمع البدائى شبه الاشتراكى لم تكن هناك مزارع أنيقة

لها مساكن نظيفة ، ولم يكن هناك أجراء يدفعون إيجارا للملاك ، ولم تكن هناك ضرائب تملأ خزائن الحكومة ، ولا موظفون يدسون أيديهم فى تلك الخزائن .

ولقد اعتبر الإنجليز ذلك كله نوعا من الحياة البربرية البدائية التى لا يمكن تصديقها . .

ويعلن المؤرخ روز « أن أحدا من المؤرخين لم يبين إلى أى مدى كانت ايرلندا عالماً مختلفا » .

وفى الحقيقة أن أحدا من المؤرخين لم يستشعر أو يحس حقيقة بأهمية تلك العوامل الثقافية فى تشكيل الأحداث التى قدر لها أن تتبع تلك الاتصالات فى العصر الاليزابيثى .

إن أحدا من المؤرخين لم يفعل ذلك ولم يتناول تلك الظواهر بالشرح والتحليل حتى جاء روز واستجلى كنهها .

ولقد صعب على الإنجليز أن يفهموا بواعث الايرلنديين ، حيث إن تلك البواعث نشأت من ظروف ثقافية تبدو فى منتهى الغرابة والعجب للإنجليز .

فكثيرا ما كان يبدو سلوك القادة الايرلنديين سلوكا فجائيا لا يمكن التنبؤ به قبل وقوعه ، ولا يمكن الاعتماد عليه ، ويتسم بالعناد والصرامة والجهامة . .

فـكانت العهود والمواثيق والاتفاقات تبرم ولـكن سرعان ما تنقض ثم تتخذ إجراءات محيرة لألباب الإنجليز.

وقد نجم سوء الفهم هـذا غالباً من حقيقـة قوامها أن سلطان القـائد الأيرلندى كان يقوم على نظام مختلف تماماً عن النظام الذى ترتـكز عليه قوة القائد الانجليزى. فلم يكن زعيم القبيلةفى إيرلندا يرث منصبه أو وضعه ، و إنما كانت تختاره القبيلة من بين عشائرها الرئيسية طبقاً لقانون تقليدى قديم كان يقضى باختيار خلف للزعيم من نفس القبيلة أو العشيرة . فـكانت قوته إذن مستمدة من رضا القبيلة عنه واستمراره كقائد منوط بمساندة رجال عشيرته . فـكأنه بذلك يختلف اختلافاً بعيداً عن السيد القوى المستبد الذى يأخذ مركزه بالوراثة ، وهو النظـام الذى اصطنعـه الانجليز خلال تطورهم وخبراتهم فى ثقافتهم ، ولذلك ما كانت أعمـال القائد الايرلندى المختـار غالبا تتحـدد نتيجة لمسائل خاصة بسياسة القبيلة ؛ وهو إجراء لم يكن مألوفا لدى الانجليز ، بل فوق علمهم .

أما فيما يتعلق بالعـادات والأخلاق ؛ فقـد كانت مسافة الخلف بين الإنجليز والايرلنديين شاسعـة جداً والفروق والاختـلافات كثيرة جداً . وفى الحقيقة كان الإنجليز يصدمون فى شعورهم بما سموه « غلظة » الايرلنديين، وكانوا يعنون بذلك افتقارهم إلى الصقـل فى العادات والرقة فى السلوك مع

مظهر بربرى فى طريقة حياتهم . ذلك أن الايرلنديين كانوا يعيشون فى أخصاص ، ويلبسون ثيابا عجيبة ويصففون شعورهم فى ضفائر طويلة ينفشونها أنكاثا مما كان يساعدهم على التخفى .

وكان من عادة الأيرلنديين أن يأخذوا بدماء الأبقار وهى حية ويستعملونها فى طعامهم . وهى عادة كانت تبدو بصفة خاصة للإنجليز على جانب كبير من التوحش وتصيبهم بالتقزز . وكان الأيرلنديون يشتركون مع حيواناتهم فى المسكن .

أما أساليب الفلاحة لديهم فقد كانت على درجة كبيرة من البدائية وقلة الإنتاج ، وهذا التأخر نفسه كان واضحا حتى فى أسلحتهم .

فالفؤوس أو البلط التى كانوا يستعملونها فى الحرب كانت أيديها مصنوعة من جذور كروم الشمال ، وكان الجندى الأيرلندى يحارب بلا عدة للحرب مستخدما قسيا قصيرة ودروعا مستديرة وسهاما .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بالإضافة إلى ذلك كان الأيرلنديون فى عين الإنجليز كسالى وعلى جانب كبير من الكلال . وعلى الرغم من مسيحيتهم إلا أنهم كانوا يلجأون إلى أعمال السحر والكهانة ، وهى رواسب كانت باقية من مراحل بدائية سابقة فى مجتمعهم . وكان نظام السرارى بالإضافة إلى عادات جنسية أخرى ، شائعا ومألوفا لدى الأيرلنديين .

ومن العجب أن عادة التساهل الجنسى أو الإباحية عند الأيرلنديين والتى كان من المتوقع أن يجد فيها الإنجليز بعض العزاء والترفيه ، من العجب أنها أثارت سخطهم ونقمتهم .

ولما كان الأيرلنديون يعيشون حياة كفاف على اقتصاد بسيط يعتمد على ماشيتهم مقتصرين على مواردهم ؛ فقد كان من الصعب جدا أن نتوقع من الأيرلنديين أن يطوروا أو ينموا أية درجة كبيرة من التجارة ، لا داخليا بين الأجزاء المختلفة لجزيرتهم ، ولا خارجيا مع غيرهم من البلاد . وتحت تلك الظروف كانت الطرق قليلة وفى حالة مقفرة كريهة ، لدرجة أن أحياء كثيرة كانت مقطوعة الاتصال بأية أسباب للمواصلات الميسورة ، بل ومقطوعة الاتصال بغيرها من الأحياء . وقد كتب اللورد النائب تششستر بشأن يوستر : « لقد كانت تلك المنطقة قبل تلك الحروب الأخيرة مغلقة فى وجه الغريب لا يمكنه الوصول إليها مثلما كانت مملكة الصين » ويصف روز تلك المنطقة بقوله : «لقد كانت مقطوعة ـ كما كانت حالها فى عصر ما قبل التاريخ ـ عن بقية أيرلندا خلف حواجزها من البحيرات والبرك والمستنقعات والأنهار» .

والحقيقة أنها كانت أكثر أجزاء أيرلندا احتفاظا بالخصائص الكلتية حيث سادت فيها ثقافة انقرض شبهها وضريبها فى إنجلترا منذ زمان طويل ولم يتبق من نوعها إلا آثار فى المناطق الخارجية المحيطة بأيرلندا وسكتلندا .

ولعل من أهم ما يستحق التنويه فى تلك الصورة الشعراء الذين اختفوا وانقرضوا فى انجلترا ولكنهم ظلوا عنصرا بارزا هاما فى بقايا العالم الكلتى حيثما قدر له البقاء .

وكان الصناجون مستودعا للأدب الشفوى القديم لقومهم ؛ إذ حافظوا على أغانى ومواويل أيرلندا وأزجالها وقصصها الشعرية ، وعلى الرغم من أن روز يصف الأدب الإيرلندى بالجمود فى ذلك الوقت إلا أنه مع ذلك كان جزءا حيا ونابضا من الحياة الأيرلندية، والأهم من ذلك أنه كان ـ على نحو ما ـ التعبير المشترك لشعب ككل . . . يتضمن كبرياءهم وعظمتهم وكرامتهم ومآسيهم وآمالهم وآلامهم .

لذلك كان الصناجون عنصر تجميع والتقاء ولم شمل الوطنية ، وبؤرة جامعة للمشاعر والأحاسيس المشتركة لشعب ، وحيث إن القصص الشعرية والأغانى كانت تسرد وتنشد باللغة الأيرلندية القديمة ،فقد أدى ذلك إلى بقائها فى حوزة الأيرلنديين ومقصورة عليهم ومختلفة عن الإنجليزية .

فى هذا المجتمع « المنحل » « والمنحط » الذى كان عاجزاً عن تكوين دولة حديثة قومية على أساس مؤسساته القائمة آنئذ ، وعلى النمط الثقافى الذى كان سائدا ـ فى هذا المجتمع قذف الإنجليز بأنفسهم فى حكم اليزابيث، كما فعلوا فى حكم أبيها الملك هنرى من قبلها .

ويعتبر روز هذا العدوان أمرا محتوما لاسبيل إلى تلافيه بالقياس إلى منطق الأحداث . ذلك أن انجلترا كانت قد صارت دولة قومية أحرزت قدرا بالغاً من النجاح والقدرة والنشاط فى تحقيق النمط الذى كانت تطوره تدريجيا واكتمال أسبابه وإرساء دعائمه .

ولم يكن هـذا النشاط موجها تلقاء مسالك تمليها عوامل القرب الجغرافى فحسب ، ولـكن كانت تمليها ضرورات أكثر أهميـة لبقاء انجلترا فى عالم المنافسة الدولية الحادة والاحتراب الآخـذ بخناق الدول ، فلم يكن ثمة بدمن غزو أيرلندا أو على الأقل تحييدها .

وكانت اسبانيا واقفة لانجلترا بالمرصاد ، وكان لهـا من أسطولها القوى ورغبتهـا فى سحق ما ترتب على قوة انجلترا الناشئة من تهديد لهـا ، ما جعلهـا تنظر أكثر من مرة إلى أيرلنـدا ، على اعتبار أنهـا لقمـة سائغة لانجلترا .

وكانت المؤامرات الفرنسية خطرا قائمـا يتربص بانجلترا الدوائر، كما كان شأن اسكتلندا مع انجلترا بعد ذلك .أما إلى أى حد أدى انفصال انجلترا الدينى عن روما إلى إكساب سكتلندا قوة متماسكة وثيقة العرى مع قوى الـكاثوليـكية من أعداء إنجلترا ، فهذا موضوع لم يبت فى أمره بعد ، ومازال

قضية خلافية ، ولـكن يتضح من أية قراءة للتاريخ أن الدين والروابط الدينية استطاعت أن تلعب دورا أكبر فى شئون أوروبا فى القرن السادس عشر أكثر مما تستطيعه فى الأوقات الحاضرة ، وكان الصراع الدينى مازال فى بداية أشواطه وظل يغرى بالمزيد من الصراع قبل أن يتوقف الناس عن الاتحاد والتـكتل على أسس دينية فى الحروب الأوروبية .

لهذه الأسباب ، مضافا إليها الفرص التى بدأت تلوح أمام الجيل الناشىء وغيرهم من المغامرين الهادفين لتثبيت مستقبلهم ، كانت أيرلندا هدفا طبيعيا لمشروع إنجلترا لأجل التوسع . ولـكن ماذا كان من أمر أيرلندا ؟ ؟ لوأنها كانت تطورت بنفس الخطوات وفى نفس الوقت مع تطور أوروبا الحديث وتمدينها ، ولوأنها وصلت إلى درجة من الثورة الثقافية التى تسمح لهـا بإقامة حكومة وطنية مركزية . . . لو كان ذلك قد حدث لمـا جرؤت اليزابيث على أن ترسل بجيوشها لغزوها . فقد كانت الملـكة على درجة من الحذر والحصافة مع وجود أخطار أخرى تتهددها من جهات أخرى ، بحيث تخاطر بنوع من الحرب الشاملة التى يقتضيها ذلك الغزو . فإذا ماشغلت قواتها وامتصت ثروتها فى مثل ذلك النزاع لأصبحت لقمة سائغة وضحية ميسورة لأعدائها . وكونها كانت تدرك ذلك وتعقله ، واضح من عزوفها دائما عن توريط نفسها فى ايرلندا تورطا كبيرا .

وفى الحقيقة لقد كان من بواعث الشكاوى الدائمة لقوادها وممثليها وسفرائها فى الحرب الأيرلندية ، هو عدم رغبتها فى أن تلقى بكل ثقلها فى تلك المغامرة .

وحقيقة لم تكن اليزابيث تستطيع أن تفعل ذلك كثيرا ، لأنها كانت مشغولة بصد منافسيها عن شواطئها ، أو كانت مشغولة بأمور أخرى فى جهات أخرى ، واقتضى ذلك مالا ورجالا وقوادا ، لذلك كان أملها أن تقهر أيرلندا بأبخس الأثمان .

فالصراع إذن بين إنجلترا وأيرلندا لم يكن يختلف كثيرا فى عناصره عن الصراع الناشب بين القوى الاستعمارية الأوروبية والثقافات الوطنية التى حاولوا التغلب عليها وابتلاعها .

وفى نتائج تلك المحاولة للسيطرة على أيرلندا نرى أمامنا على مسرح التاريخ قصة المأساة التى قدر لها أن تتكرر بعد ذلك مرة ومرة ومرة فى أماكن أخرى فى الأربعمائة السنة التى تلتها والتى انتهت إلى نتائج تكاد تكون متشابهة .

ولقد تصادف أن ايرلندا كانت إحدى الأمثلة المبكرة فى العصر الحديث للصراع الثقافى ، وكادت تكون مثلا كلاسيكيا للنوع والأسلوب .

ولكن البريطانيين فى الهند . . . .

والفرنسيين فى شمال إفريقيا . . . . . .

والهـــولانديين فى جاوة . . . .

أعادوا تمثيل الموضوع الأساسى للمسرحية مع الفارق فى الاخراج المحلى .
وعلى الرغم من أن الإنجليز آخر الأمر احتلوا ايرلندا بالغزو العسكرى،وصادروا ممتلكات كثيرة لصالح الغزاة الانجليز الذين كان معظمهم من ويلز وكورنول فإنهم فى الحقيقة لم يتمكنوا أبدا من إخضاع الناس أومن إقناعهم باتباع الطريقة الانجليزية للعيش .

ولقد أخفق الانجليز فى ذلك، لأنهم لم يفقهوا أبدا التأثير العميق للثقافة فى دوافع الناس واتجاهاتهم ، ولم يدركوا إلى أى حد يكون رد فعل الناس قويا فى تلك الظروف .

ولقد كان ذلك العجز عن رؤية أوتقدير أمر الصراع الثقافى ـ فضلا عن حسمه ـ هو الصخرة التى تحطمت عليها مغامرة الانجليز فى ايرلندا . وعندما أصبحت انجلترا ميالة للتساهل كان نمط المقاومة قد احتد واشتد .فكان لابد من إطلاق سراح ايرلندا ، وبذلك انتصرت الثقافة ، ولكن ثقافة ايرلندا أصابتها تغييرات طوال تلك العملية .

فلم يكد الصراع ينشب حتى بدأ يبرز بعض جوانب الحياة الايرلندية

إبرازا أكثر وأوضح مما كانت عليه من قبل . فمثلا أصبح الصناجون مركز المقاومة ، فقد استطاعوا أن يلعبوا على الوتر الحساس فى عواطف وانفعالات الايرلنديين مما مكنهم من توثيق عرى الولاء بين القبائل وتوسيع مداها مع رفع درجة حماسة الوطنية المحلية .

حتى الكنيسة نفسها ـ التى كانت راسخة وطيدة لعدة قرون وحافظت على نوع من الحكم الذاتى ـ استعادت حيويتها ونشاطها بشكل بالغ العمق والدلالة . ويصف روز حالة الكنيسة قبيل الغزو الانجليزى بأنها كانت فى حالة يرثى لها . ويقول إنها كانت متراخية وفاسدة وفى حالة احتضار . وكانت الشعائر الدينية شكلية تؤدى دون اهتمام . وكانت الكاتيدرائيات فى حالة محزنة من تصدع مبانيها فما بالك بالكنائس المحلية . فمن بين ٢٢٤ أبروشية كانت هناك ٥٢ فقط يقوم على خدمتها بصفة دائمة خوريون (قسس) . وكانت ١٠٥ من الكنائس ومايلحق بها من أراض موقوفة عليها تقتصر على أن تؤجر للفلاحين وتترك مزاولة وظائفها الدينية .

فلاعجب أن يتحدث الانجليز بحالة التساهل فى الزواج وممارسة التسرى الذى كان سائدا عند الأيرلنديين ، ولقد تغير كل ذلك بعدغزو انجلترا لأيرلندا وعلى الأقل أصبحت الكنيسة عماد القومية الأيرلندية .

وكنظام له كيانه الخاص فى الحياة الأيرلندية أصبحت الكيسة ذات مركز

أساسى ومحورا للأحداث ـ لأنها كانت فى الحقيقة وواقع الأمر المؤسسة القومية الوحيدة التى كانت السلطة فيها أيرلندية بحتة . وبذلك تجسمت فيها وحدة الشعب . ولقدظهرت عندئذ تلك الدرجة الكبيرة من تكامل واندماج الحياة الأيرلندية بالكنيسة التى تميزت بها أيرلندا دائما كنتيجة للضغوط الانجليزية . وهذا التطور لايختلف كثيرا عن الخبرة الأنثروبولوجية مع الثقافات البدائية التى وقعت تحت ضغوط المدنية الغربية وأحست بتهديد خطر لأنماط عيشها .

هنا أيضا كانت الظواهر الدينية هى التعبيرات المميزة كجزء من إعادة مولد و بعث التراث الوطنى القومى الخاص .

فى هذه الحالة يعاد إحياء الطقوس القديمة فى صور جديدة ، وتنشط العواطف الدينية وتجيش فى الصدور ، وتستخدم فى إعادة توجيه أو ملاءمة الناس للخبرات التى يمرون بها .

وعندما يجد الناس أن طرق حياتهم القديمة وأساليب عيشهم المألوفة التى يعتزون بها ويحرصون عليها مهددة بالانحلال و يشعرون بالبلبلة وعدم الاستقرار حيال الجديد الذى لم يجربوه ولم يطمئنوا إليه ، فإنهم يتصرفون كرد فعل لذلك ، إما بالإحساس باليأس والضياع ، أو يبذلون محاولات عنيفة للاحتفاظ بما يمكنهم أن يحافظوا عليه حتى إذا اقتضى ذلك بعض الملاءمة

والتحايل فى عملية الاحتفاظ هذه . و إنا لا ندرى إذا كانت العواطف الدينية والروحية القوية المستمدة من الكنيسة بالقياس إلى الأقليات الأوروبية الأخرى الواقعة تحت ضغط مشابه لما وقعت تحته أيرلندا قد نجمت من نفس الإحساس ورد الفعل . ولكنا على الأقل نلاحظ أن حياة الشعب والكنيسة كانت أكثر تكاملا واندماجا فى بولندا ، حيث كان الظلم الثقافى أو النبذ الثقافى موجودا فيها أكثر من غيرها من المناطق حيث انعدمت مثل تلك المشاعر والأحاسيس أو قلت .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك ملاحظة عامة قوامها أن الدين عند اليهود كان قد أرخى قبضته لدرجة أن عجزهم الثقافى قد خفت حدته .

وخشية الاستطراد إذا ماتناولنا بالتفصيل والتحليل تاريخ أيرلندا من القرن السادس عشر حتى وقتنا الحاضر فقد رأينا الاكتفاء بهذا القدر ، على الرغم من أنه مازالت هناك جوانب رائعة جديرة بالذكر فى تلك القرون الحاسمة أغفلت ذكرها كليا . فلم أتعرض مثلا لتوقيت عمليات رد الفعل، وإنما اكتفيت ببيان فكرة أن الثقافة الواقعة تحت مطارق الهجوم على الرغم من كل مقاومتها فإن بعض رواسب الثقافة الغازية تترسب فيها وتتخلف .

فالصراع ليس عملية سلبية أبدا . والتاريخ المكتوب من وجهة النظر هذه يمدنا بفهم أوفر وأغزر لأحداث التاريخ من التاريخ الذى يقتصر على مجرد

سرد المواقع الحربية التى خاضها المتحاربون والأطماع الشخصية التى تتحقق أو تخفق ، والمؤامرت السياسية التى إما أن تنتهى إلى الإحباط أو تفوز بمآربها .

وفى حالة ايرلندا إذا تناول المؤرخ تلك الأحداث العابرة دون تفسير للعمليات الثقافية التى مكنت لتلك الأحداث فسيكون ذلك مثل وصف الحصول على النار من الصلب على الفتيل ، مع ذكر الشرر ولكن مع إغفال الوسيط .

ولكن هذا التشبيه قد لايكون هو التشبيه الدقيق الذى نقصده .

فإن التايخ أكثر تعقيدا من ذلك ، إذ غالبا ماتؤثرالأحداث التى شكلتها العمليات الثقافية فى الثقافة ذاتها بدورها .

الثقافة فى التاريخ الأمريكى

على الرغم من وجود أمثلة عديدة أخرى للدور الذى تلعبه ديناميكيات الثقافة فى التاريخ تحت أعماق السطح الظاهر للشخصيات والحركات السياسية إلا أننى سأجد بعض المتسع للإشارة لمثال واحد آخر فقط . (وهذا المثال من تاريخنا نحن) .

فدور العمليات الثقافية فى تقرير التاريخ أوضح ، أو على الأصح أكثر تقبلا وإدراكا واعترافاً فى تاريخ الولايات المتحدة عنه فى أى مكان آخر . وعلى الرغم من أن معظم من كتبوا عن الموضوع اتبعوا الأساليب التقليدية فى سرد أحداث ماضينا بتركيز اهتمامهم فيما أسمـاه شارلز بيرد « بالتاريخ السياسى المجدب » ، على الرغم من ذلك فإنه كان هناك عدد لا يستهان به من المؤرخين فى بلادنا ممن كانوا حساسين حيال العناصر الثقافية .

ولعل أول من اكتملت له عناصر هذه الحساسية وهـذا التقدير لقيمة التفسيرات الثقافية هو المؤرخ ترنر فى بحثه الشهير عن أثر الأنماط الثقافية لحياة التخوم المبكرة على سياسة الأمريكيين .

ولا يسع الإنسان إلا التساؤل عما إذا كان ذلك الإدراك ذاته فى هذه

البلاد راجعا لحقيقة أن الولايات المتحدة أمة جديدة حيث كانت مشكلات ملاءمة وتأقلم التقاليد الأوروبية للبيئة الأمريكية عنصرا بارزا بصفة خاصة فى وعينا . من أجل ذلك كان الأمريكيون بصفة عامة أكثر وعياً من الأوروبيين وأكثر إحساسا بتلك التيارات التحتية الثقافية .

يضاف إلى ذلك أننا كأمة مكونة من خليط مختلف من الأصول والأجناس لكل منا ثقافته الخاصة به ولغته المميزة ـ فإننا شعرنا على نحو ما بشكل حيوى أكثر من غيرنا بأثر الاتصال الثقافى وطريقة تفاعله فى مظاهر التأقلم والعمليات الثقافية الأخرى التى تتم فى معاشنا اليومى ، وتؤثر فى سلوكنا .

لذلك حتى إذا كان كثير منا قد أحس بتلك المشاعر إحساسا عميقا دون أن يعقلها أو يسميها ، إلا أننا ندرك حقيقتها بسرعة إذا تناولناها بالتعميم. والأوروبيون الذين يعيشون فى عالم ذى ثقافة أكثر نضجا أقل حساسية حيال تلك الأشياء .

وبالإضافة إلى ذلك فإن التطورات المقارنة التى حدثت فى أوروبا انتهت إلى مايلزمها من حسم وقطعت أشواطها فى وقت كان الاهتمام بالتاريخ محصورا فى نطاق ضيق وكان المجتمع أقل استيضاحا لتلك الشئون . ولكن

حياة الارتياد الأولى – على الرغم من أهميتها – لم تكن النمط الثقافى الوحيد الذى عبر عن نفسه وتجلى فى الحياة الأمريكية فى تاريخنا .

منذا الذى يجهل أهمية تكتل الأقليات والتكتل القائم على الجنسية الأصلية فى إجراءاتنا السياسية ؟؟

كم من المرات نردد فى الانتخابات الصوت الأيرلندى والإيطالى والبولندى ، وأخيرا صوت السود ؟؟

إننا دائما نرى كيف يرحب الساسة بتلك المجموعات من الأصوات ، وكيف تؤثر فى قراراتنا على الشئون الوطنية وأحيانا الدولية . إنها ظاهرة أمريكية بصفة خاصة وكان لها أثر واضح فى تاريخنا أكثر بكثير مما توحى به كتب تاريخنا .

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب قد أدركوا التأثير الذى يحدثه هذا النمط من التصويت فى السياسة ، فإننى لا أجد مؤرخا واحدا قد تناول انبثاق تلك الظاهرة بتحليل تفصيلى على أسس ثقافية[1] .

(١) إن المؤلف الذى ظهر حديثا لـ هاندلن ، ويتك وآخرين يكشف عن تقدير وإدراك متزايد لتلك الحلقة من تاريخنا وعن تقارب أكثر تلقاء التفسير الثقافى مما درج عليه المؤرخون بصفة عامة .

ومع ذلك فمن هنا ـ كما يبدو لى ـ تبدأ ، وهنا يكمن سبب تطورها .

ولقد ترك المؤرخون لعالم الأنثروبولوجى وعالم الاجتماع مهمة تحليل الخلخلة الثقافية وعمليات « الخلع » والإزاحة المصاحبة للمهاجرة والاستقرار التى قامت بها الجماعات المتعددة المختلفة الجنسية والأصل فى الولايات المتحدة .

ولقد أنتج هؤلاء العلماء الاجتماعيون مؤلفات كثيرة زاخرة ببيان آثار عملية التأقلم المصاحبة للهجرة والتى استمرت منذ بداية تاريخنا فى الولايات المتحدة ولكنها ازدادت بصفة خاصة أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين .

ولقد جمع هؤلاء العلماء قدرا هائلا من الأدلة والبينات الدالة على تطور أنماط مشاعر الأقليات أو الجماعات ووضحوا كيف تتطور تلك الجماعات كأقسام ثقافية فى نطاق الثقافة القومية وكيف أنها تدين بالولاء لتلك الفروع ، وفى نفس الوقت تحتفظ فى معظم الأحيان بولاء أكبر للوطن ، وإن لم يكن فى كل الحالات .

ذلك أن الساسة كثيرا مايضربون على الوتر الحساس عند تلك الجماعات ليثيروا فيها نعرات خاصة ويستلينوا منها مغامز معينة قوامها مصالح فئة معينة ، أو ولاؤها الخاص ، أو مايتهدد بعض تلك الجماعات من عدم طمأنينة أو بلبلة فيستغلها الساسة لمآربهم .

والانقسام والتحزب ظاهرة قومية أخرى معروفة جيدا فى تاريخنا . بل هى فى الحقيقة ظاهرة كانت مسئولة عن أخطر تهديد لحق بنا بالقياس إلى كياننا الفيدرالى .

والاقتصار على التعليق السياسى على نشأتها لم يكن أبدا كافيا ولا وافيا كتفسير لظهورها فى مجتمعنا . فلما أدركنا قوة الاقتصاد كعامل فعال فى فى توجيه سير الأحداث السياسية طبقت تلك التفسيرات التى من هذا النوع على ظاهرة الانقسام والتحزب مثلما طبقت على غيرها من التطورات فى تاريخنا .

ولقد أدى ذلك غالبا إلى فهم أوضح للنتائج والآثار المتضمنة فيها . ونحن فى سبيل إدراك أن العوامل الاقتصادية بكل مالها من أهمية ليست هى العوامل الوحيدة ـ وخصوصا فى حالة اتساع مدى التأقلم الثقافى والملاءمة التى يمثلها ذلك الانقسام والتحزب ـ ذلك أن التحزب والانقسام يتضمنان شيئا أكثر من اقتصاد زراعى ضد تصنيع أو فرض « تعريفه » عالية .

ومهما كانت قوة دوافع الحماية الاقتصادية أو تفضيل هذا الاقتصاد على ذاك فى توجية الإجراءات السياسية ، وعلى الرغم من كونها عوامل لا سبيل إلى إنكارها فى تلك المواقف ، فإن التحزب أو الانقسام يمثل

ملاءمة الأنماط الثقافية والقيم للبيئة ونمو تقاليد وعادات خاصة بمنطقة معينة ، فكبرياء أهل الجنوب هى نوع من الدفاع عن طريقة حياة ، وليست دفاعا عن قانون أو مبدأ اقتصادى .

وأهالى نيو انجلند يشعر الواحد منهم بأنه جزء من تقليد أكبر بكثير من حاجات نظام صناعى . فالتقاليد التى يحرص عليها ويعيش بها تعلو على النظام الصناعى ، والأوجه الخاصة المميزة لحياة الشمال الغربى ، مردها إلى التربة الخصبة أكثر مما هى إلى قاطع الأخشاب أو إلى البستانى . تلك الفروق العميقة - التى يصعب تفسيرها أحيانا ولكنها واضحة جداً للأمريكى - تضفى لونا على ثقافتنا القومية وتخلق وجهات نظر مختلفة متباينة ، وأحيانا تؤثر فى قضايانا ومسائل حياتنا الكبرى . ولن يكون سؤالى خارجاً عن الموضوع أو خالياً من الوجاهة إذا تساءلت عما إذا كانت أوضاع الوسط الغربى للولايات المتحدة التى تعزى إلى وضعها الجغرافى والتى شكلتها مؤسساتها المحلية لم تؤثر فى تاريخ دخولنا الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وحتى الاحتفاظ بشكل وتنظيم مستعمراتنا الأصلية إلى اتحاد ولايات الذى خلق شكلا جديدا للحكومة ، حتى ذلك يعكس ظاهرة التحزب والانقسام التى كانت قد ظهرت وتطورت عندما تكون الاتحاد .

وفى تلك الأزمنة كان الرجل إما أن يكون فرجينيا ، أو ماساشوستيا ، قبل أى شىء آخر ، وفوق أى اعتبار آخر .

ولقد كانت تلك المشاعر من العمق بحيث إن توحيد الأمة كان يستحيل مالم تدخل تلك المشاعر فى الحساب والاعتبار .

أليس شــكل حكومتنا ناتجا وحصيلة لتقاليــد المستعمرات التى ظلت باقية فى ولاياتنا ؟؟

لقد نشأنا جميعا على النظر إلى إعلان وثيقة الاستقلال ودستور الولايات المتحدة الأمريكية كوثيقتين رائعتين بارعتين نبيلتين . وأعتقد أننا محقون فى هذه العقيدة . ولقدوجدت تلك العقيدة كثيرا من المساندة والتدعيم من أكثر النقاد والدارسين حــدة من بلاد أخرى الذين لم يكن لهم فى الأمر ناقة ولا جمل .

ومن بين الأشياء ــ التى غالبا ماتذكر مقرونة بالفخر والامتياز ــ أن تلــكما الوثيقتين كانتا من ابتــكار وخلق رجال زودوا بمواهب خارقة .

إن الأمر يبدو لنا اليوم معجزا إذا نظرنا إليه من وراء قبل قرنين من الزمان ، ورأينا عددا قليلا من الرجال استطاعوا أن يصوغوا من حكمتهم و بصيرتهم وثائق تطابق حاجات وتتمثل فيها المثل العليا لمجموعة جديدة من المستعمرات غيرمنظمة ولم يسبق لها ممارستها ولم تجربها ، ثم تحقق تلك المبادئ

أهدافهم وتخدم أغراضهم بوجه عام و بشكل كاف واف ، قرابة قرنين من الزمان . وأعتقد أننى لن أتهم بأننى مخرب أو محرف إذا قلت بأنه على الرغم مما يستحقه هؤلاء المؤسسون من تبجيل واحترام لذكائهم و بصيرتهم فإن بعض أقوالهم وكثيرا من إجراءاتهم ما كانت لتتم أو يقدر لها الخروج إلى حيز التنفيذ فى أية دولة أخرى أو أية ثقافة أخرى غير تلك التى وجدوا أنفسهم فيها . ففى سنة ١٧٧٦ بعد مائة وخمسين عاما من الاستقرار والملاءمة فى العالم الجديد كانت الصفات الثقافية للأمريكيين المستعمرين قد انحرفت بالفعل انحرافا بيناً من ثقافتها الأصلية التى ولدت منها والتى تخلى عنها وابتعد عنها معظم المستعمرين لأجيال عديدة .

فالتكوين الطبقى مثلا فى انجلترا أصبح أكثر تزمتا فى الوقت الذى كان فيه هنا آخذا فى الذوبان تحت تأثير الظروف الأكثر بدائية لمجتمع فتى ناشئ ، ولعالم يقوم على الارتياد والكشف الدائم الدائب .

واعتماد الرواد الذين يستقرون فى أرض بكر على مواردهم وحدها ، ثم فى نفس الوقت تطور درجة كبيرة من ضرورة وحتمية التعاون فى تلك الظروف ، جعل جمود النظام القديم وتزمته غير ذى جدوى ولا يصلح للعمل . و بالإضافة إلى ذلك فإن الانسياب الاقتصادى ، والمرونة الاقتصادية ، والسرعة فى الارتفاع

والهبوط على السلم الاقتصادى ، لم تكن تسمح بقيام نظام للطبقات مثلما كان موجودا فى العالم القديم .

وهكذا كانت الفروق الاجتماعية بين الناس فروقا اسمية،وحتى إذا تولدت الفروق فإنها لم تكن تصل إلى الدرجة أو البعد الذى يمحو الفكرة الأساسية القائمة على المساواة ، وأن زيدا لا يفضل عمْرا ، وأن لا فضل لهذا على ذاك إلا بالعمل والمجهود .

ولقد استطاع كثيرون أن يرتفعوا من الحضيض فى جيل واحد إلى مراكز الصدارة مما أدى إلى عدم تثبيط الإيمان بهذه العقيدة الديموقراطية التى شاعت وذاعت بين القوم .

ولقد ردد المؤسسون من الرواد الأوائل كلمات الحرية والاستقلال مرارا وتكرارا ، ولم تكن مجرد كلمات جوفاء يلهبون بها الحماسة ولكنها كانت حقائق حية ماثلة فى حياة سكان المستعمرات الذين كانوا يتمتعون بنعمها فى معاشهم اليومى . وفى مقارهم ومساكنهم البعيدة لم يكونوا يرون إلا قليلا من الموظفين ، ولم يجربوا إلا قليلا من التدخل فى عاداتهم وإجراءاتهم التى اشتقوها من ضروراتهم العملية المباشرة . لذلك كان العمل الاستقلالى وروح المبادرة فى مشروعاتهم ضروريين إذا قدر لتلك الأسر أن تعيش ، فضلا عن أن تزدهر وتنتعش أحوالها .

لذلك نمت لديهم تقاليد اللجوء إلى مجهوداتهم أنفسهم لحل مشكلاتهم والتصرف دون انتظار السلطة البيروقراطية لتحمل عنهم المسئولية ، ثم نما فيهم أيضاً بغض وكراهية التدخل من الخارج .

هذه هى الصفات التى تنبثق دائما عند أقوام من الرواد غير مثقلين إلا بالحد الأدنى من الحمل الثقافى ، بل يصطنعون فى الواقع تراثا ثقافيا لأنفسهم .

فلا عجب إذن أن تستهل وثيقة إعلان الاستقلال أولى مبادئها بالنص على أن الناس خلقوا متساوين .

لقد كان ذلك المثل الأعلى لمجتمعنا فى بدايته — ولقد رسخت أقدام هذا المثل لدرجة أنه حتى لو كان بعض من وقعوا عليه لم يلتزموا شخصيا باتباعه إلا أنهم ما كانوا يجسرون على التشهير به علنا أو الانتقاص من قدره .

وعلى غرار ذلك فإن عقيدتنا وإيماننا بالديموقراطية كطريقة للحياة تعبر عن مثل أعلى جماعى لثقافتنا ، على الرغم من أنه قد يوجد البعض الذين يدينون بقيم أخرى .

ومنذا الذى يجرؤ على إنكار أو تحدى مايعتز به الناس ؟ ؟ إن الذى يفعل ذلك إما أن يكون شخصا فى غاية الشجاعة أو أن يكون مجنونا .

وهكذا فإن كون بعض الموقعين على وثيقة إعلان الاستقلال كانوا رجالا ذوى مكانة اجتماعية رفيعة وذوى ثروة ، وربما كان من المتوقع منهم أن يجنحوا إلى نوع من الطبقية . هذه الحقيقة تبين قوة المثل الأعلى الثقافى . واذا تمعنا فى وثيقة الجزئيات وجدنا أنها تنص مرارا وتكرارا على شكاوى وتذمر المستعمرين من أعمال البريطانيين دون موافقتهم .

هنا انعكاس لألم عميق ناجم مباشرة من تعود المستعمرين على معالجة شئونهم بأنفسهم وعلى رفض تحمل التدخل .

مامصدر هذا الاتجاه ؟؟

إن الضرائب لم تكن ظالمة .

وتنظيم التجارة على يد بلادهم الأصلية التى هاجروا منها كانت سياسة متبعة تنتهجها إسبانيا وفرنسا والبرتغال ودول الشمال .

وحقيقة أنه كان يوجد نظام برلمانى فى تقاليد المستعمرين الذين أتوا بها من بريطانيا ولكنه كان نظاما لم يتطور بعد إلى شكله الحاضر ، ولم يكن عندئذ قد تغلغل فى النشاط السياسى للكافة وعامة الناس .

ومما لا شك فيه أننا مدينون بجذور الحكومة النيابية لبريطانيا ، ولكن وضع البذرة ونموها نفسه من صنع أيدينا لأنه كان نتاجا

وحصيلة للظروف الاجتماعية والثقافية التى انبثقت فى أمريكا - وأية مقارنة بين النظام البريطانى ونظامنا تبين فروقا واضحة ما كانت لتظهر لولا وجود تلك الظروف .

وإنه ليبدو لنا فى زماننا اليوم أنه من سخريات القدر أن المستعمرين كانوا يعارضون جيوش الموظفين .

ومن المؤكد أن هذا النبذ كان أمرا طبيعيا بالنسبة لقوم تعودوا حياة الريادة . وليس من الصعب علينا أن نتخيل ماذا يكون تفكيرهم حيال الأعداد الهائلة من الموظفين الذين نشأوا محليا .

كذلك نلاحظ أن وجود جيوش قائمة دائمة كان يبدو فى تلك الأيام أمرا غير مستساغ أو مقبول ، وغريبا عليهم .

ولقد ظل هذا الشعور القومى حيال تلك المسألة حتى عهد قريب .

والمجال لا يتسع هنا لمتابعة تفصيلية للبيانات والأمثلة الدالة على أثر النمط الثقافى فى شكل وصفة وثائقنا التأسيسية ، ولكنى لا أستطيع أن أترك الموضوع دون إشارة للجهود المستمرة التى تغلغلت فى كياننا للحصول على حرية الفرد وكفالتها التى عبر عنها الدستور نفسه تعبيرا واضحا .

ويجوز لى أيضاً أن أنوه بعملية دمج المستعمرات فى الاتحاد كولايات مميزة ، مع النص على تفسير حقوقها بدقة وعناية، ومع الاحتفاظ لها بشخصياتها المختلفة وكيان كل منها على حدة .

وقد كان من الممكن اصطناع أقسام سياسية أكثر كفاية وسلطة مركزية مهيمنة لتحقيق أغراض إدارية ، ولكن هذا بالضبط ـ لو قدر له أن يحدث ـ لكان قد حطم الولاءات المحلية ، والأنماط الثقافية ، ولجعل الاتحاد مستحيلا . لذلك كان لا بد من قيام الاتحاد وفق الأنماط الثقافية ، أو عدم قيامه بتاتاً .

فإذا أخذ التاريخ على عاتقه مهمة إحياء ماضينا ، فعليه أن يدخل فى حسابه واعتباره كل العوامل والعناصر الهامة المسئولة عن ذلك الماضى والتى شكلته وأوجدته .

لذلك وجد التاريخ نفسه فى تطوره ملزما بتوسيع مجال بحثه ونطاقه بانبثاق اتجاهات جديدة ومصادر جديدة كانت مغلقة من دونه ثم فتحت أبوابها أمامه . وليس معنى توجيه البحث تلقاء تلك المناهج الجديدة أننا نقترح ترك المناهج القديمة ونبذها . ولكن المسئولية أصبحت جبارة وهى تمضى قدماً نحو مزيد من الالتزامات التى ترهق المؤرخ من أمرها عسرا فيولى منها فراراً .

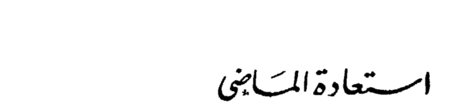
ولكن حل المشكلة ـ على الرغم من ذلك ـ ليس التقليل من التاريخ ولكن المزيد منه ومن نوع التخصص القائم الآن . فنحن محتاجون إلى علماء تاريخ مدربين فى نواحى تخصص تمكنهم من الإفادة من القيم التى يملكونها ليضيفوها إلى حاصل جمع التاريخ فى أشكال وقوالب يسهل تركيبها ودمجها . إذا كانت بحوث المؤرخين فى الاقتصاد والعلوم والفن والأدب والأفكار والأوجه الأخرى لمدنيتنا قد آتت أكلها وأثبتت جدواها، وهو أمر لا يتعرض لإنكاره إلا فئة قليلة، إذن أفلا نتوقع على أقل تقدير أن الدراسة الأنثروبولوجية لتاريخنا ستؤتى أكلها أيضاً وتمدنا ببصائر أكثر عمقا ونفاذا ؟؟

ذلك أن الأنثروبولوجى باتجاهها الثقافى أقدر على تزويدنا بالأدوات والمفاهيم التى تنير لنا السبيل وتبين لنا الطريقة التى تم بها تشكيل مؤسساتنا ومصائرنا على يد أنماط عيشنا وعملياتنا الثقافية .

ومهما أسهم هذا الاتجاه فى فهمنا للتاريخ ، فإنه سيظل دائماً قائما على التقليد القصصى . وهذا يتضمن تفرد الحادث التاريخى وسلسلته من السبب والنتيجة ، ولقد تلافى التاريخ ـ بصفة رئيسية ـ التزيى بزى العلم ، ولم يحاول التعميم من الأحداث التى يصفها .

ولكن منهاج الأنثروبولوجى وخبرة الأنثروبولوجيين وتجاربهم تشير

إلى نوع آخر من الإسهام يستطيعون به تزويد التاريخ وتقـديم العون له . فعلى الرغم من أن علم الأنثرو بولوجى يعترف بالطبيعة الفريدة الفـذة لأى ثقافة وللطريق الذى مهدته لتطورها ، فإنه يبين أن التشابه فى رد الفعل الثقافى أمر مقرر ، وإذن فيمكن استنباط تعميات من الدراسة المقارنة لعدد كبير من ثقافات مختلفة . ولقد تحقق علم الأنثرو بولوجى من عمليات معينـة يمكن ـ فيما أعتقد ـ أن تفيد فى التحليل التاريخى وتدل على أن الطريقة المقارنة لها ميزة أخرى وقيمة ممتازة بالنسبة إلى التاريخ .


استعادة الماضي

من أعظم الأشياء التى تستحق الذكر التى اصطنعها الإنسان تلك الطريقة التى استطاع بها أن يسترجع ماضيه من البقايا والمخلفات غير مرموقة القيمة عبر القرون والتى عفى عليها الزمن وأسدلت عليها ستائر النسيان .

وبهذا استطاع الإنسان أن ينظر فى أمر نفسه فى حاضره موصولا بماضيه ، أى أن عنصر الزمان دخل فى حساب الإنسان .

وعندى أن هذا الأمر لم ينل نصيبه الذى يستحقه من التقويم كمأثرة فكرية أو بصيرة زودت الإنسان فى أهم ما يشغله ؛ ألا وهو دراسة نفسه .

ولقد لاقى منا البحث العلمى كل تقدير ؛ وكانت النتائج المذهلة التى توصل إليها فى طبيعة العالم المحيطة بنا مثار إعجابنا وتعجبنا .

ولقد أفدنا فائدة مباشرة من البحوث والفحوص الخاصة بوظائف أجسامنا كأجهزة عضوية ونحن نطأطىء هاماتنا إجلالا لتلك الروح التى لم يصبها كلل أو يتطرق إليها ملل ، والتى أدت إلى اكتشاف جغرافية الإنسان ، وشق الطريق إلى كل زواياه وخفاياه .

ولكن قدرة الإنسان على رفع الأستار وإماطة اللثام عن ماضيه كانت مأثرة أقل وضوحا من تلك التى سبق ذكرها . ولا يمكننا أن ندرك

معناها إلا من التغيرات الثورية التى خلقتها فى فهمنا لطبيعة الإنسان وأصله وحضارته .

ويصعب علينا ــ وقد تعودنا المفاهيم الحديثة للزمان والمكان ــ أن ندرك إلى أى حد كانت نظرتنا إلى القرون الماضية ضيقة فى هذين المجالين : مجال الزمان ، ومجال المكان .

فهيرودوت الذى كان من أغزر الناس علما وأكثرهم أسفارا فى زمانه كان يعرف العالم المحيط بالبحر المتوسط ، وفى مناطق معينة كانت معرفته تمتد إلى أماكن تبعد عن شواطئه .

أما الصين والشرق الأقصى فقد كانت فوق علمه . ولم تكن أفريقيا جنوب الصحراء معروفة له . أما كل المناطق الشمالية والغربية لأوروبا فقد كانت تمثل له منطقة محفوفة بالغموض وعدم التثبت من وجودها .

وطبيعى لم يكن العالم الجديد قد اكتشف بعد ؛ إذ لم يتم ذلك إلا بعد ألفى سنة تقريبا من زمن هيرودوت .

ولكن على الرغم مما يبدو لنا من ضيق حيز وتقلص تلك المعرفة بالعالم الطبيعى إلا أنها أحاطت فعلا بكل مراكز الحضارة العظيمة [1] حيث وصل

---

(١) إننى أذكر عند هذه النقطة فى التاريخ ــ الصين والهند بالإضافة إلى حوض البحر المتوسط ــ كبؤرتين لحضارات راقية .

العقل الإنسانى إلى مدارج بلغت أعلى القمم التى ارتفع إليها الإنسان فى ذلك الوقت . و بمقارنتها بما عرف عن الإنسان فى ميقاته فإنها تبدو لنا هائلة .

ولكن ماذا كان يعرف هيرودوت أو أى متعلم أثينى عن الماضى وعن أبعاد الزمان ؟ ؟

لقد عاش هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد و بالنسبة للأثينيين فى ذلك الوقت ـ لم يكن حتى هومر الذى لم يكد يمضى على موته أكثر من أربعمائة أو خمسمائة سنة ... سوى مجرد اسم يذكر .

وقد كان أبطال الالياذة الذين وصفهم هومر بعد مضى مئات عديدة من السنين على حياتهم الحافلة بالأحداث ـ كان هؤلاء الأبطال على درجة كافية من الوضوح فى أذهان الأثينيين ، ولكن وراء ذلك تلاشى كل شىء فى عالم أسطورى لا أثر فيه للزمان .

وأنا أتحرج بل أتردد فى توقيت زمن مضبوط تقف عنده معرفة هيرودوت بالماضى ، لأنه كان على وعى بتاريخ مصر القديمة، وعلى بينة بحقيقة أن آسيا الصغرى أو اليونان نفسها كانت ذات عمق تاريخى ممتد الجذور ولكنى أشك فيما إذا كانت معرفته تصل إلى أبعد من ألف أو ألفى سنة . وليس من الواضح أن الإغريق قد عنوا بتلك المشكلة .

ذلك أن مسألة أصل الإنسان وكيفية وصوله إلى مستواه الحاضر من الحضارة ، وكل القضايا المتفرعة عنهما لم تكن موضع اهتمامهم الجدى ، أو ربما لم تكن موضع اهتمامهم أبدا .

ذلك أن أساطيرهم التى زودتهم بأفكار عن نشأة الخلق من كل نوع قللت إلى حد ما - من تساؤلهم فى هذا الصدد . وكما أن الثقافة لم تبعث رغبة دائبة فى عقولهم للبحث ، لأنهم ما كانوا قد اكتشفوا بعد طبيعتها ، فكذلك الأمر وربما لنفس السبب - بالقياس إلى عدم خبرتهم أو عدم اهتمامهم بأصل الإنسان ونمو الحضارة وتطورها .

وفترة ألفى عام من التعمق التاريخى التى نسمح بها بسخاء لهيرودوت ليست سوى كسر بسيط وجزئى ضئيل من تاريخ الإنسان على سطح البسيطة ثم هى ليست سوى كسر بالغ الدقة فى الصغر بالنسبة لتاريخ البسيطة نفسها .

فإذا قدرنا عمر الأرض بثلاثة بلايين ونصف بليون سنة [١] وقدرنا أول ظهور للإنسان على الأرض بأنه حدث منذ مليون سنة كان معنى ذلك أن معرفة هيرودوت - مع مافيها من نواحى قصور وغموض - لا يمكن أن تصل فى تاريخ الأرض إلى أبعد من $\frac{٦}{١٠٠٫٠٠٠}$ من واحد بالمائة من الطريق .

(١) هذا تقدير محافظ - مد فيه بعض العلماء إلى خمسة بلايين من السنين .

و بالنسبة لتاريخ الإنسان فإنها تصل إلى ٢/٣ من واحد بالمائة .

وطبيعى ينبغى ألا نعتبر تلك المقارنات اعتبارا حرفيا ، ولكنها مع ذلك تبين إلى أى مدى وصلت النظرة المحدودة لواحد من الإغريق الذين عاشوا فى أكثر فترات تاريخ الإنسان إشعاعا ، وتبين ضيق الحيز الذى يستطيع اجتيازه إلى الوراء عبر الطريق الشاق الذى قطع الإنسان أشواطه .

و بهذه الحقيقة فى حد ذاتها كان هيرودوت مقطوعا من تيار الإنسانية الموصول ، وعاجزا عن فهم ما يعنيه ماضيه فى ذاته ، وما يعنيه هذا الماضى بالقياس إلى حاضره ومستقبله .

فإذا كان ذلك هو كل ما استطاع الإغريق استرجاعه من الماضى فلا شك أن معاصريهم ومن سبقوهم لم يكونوا أفضل منهم فى هذا الصدد ، بل ربما كانوا أسوأ بكثير .

ومن الممكن أن نستثنى من ذلك العبريين ، لأن الإنجيل رجع بتاريخهم إلى آلاف عديدة من السنين ، ولكن وراء تلك الآلاف العديدة لم يكن هناك سوى التيه والفراغ .

وقد استمرت هذه النظرة المحدودة حتى العصر الحديث ما عدا ما أضافه الوقت، فتراكم وزاد فوق ماعرفه الإغريق والعبريون، أو ماظنوا أنهم يعرفونه عن الماضى .

وحتى فى أواخر القرن الثامن عشر اتبع معظم العلماء الأسقف أوسشر فى تأريخ بدء العالم بسنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد .

واعتبروا التاريخ الحقيقى يبدأ بالإغريق .

وما زالت الحضارات القديمة التى طال نسيانها مدفونة فى باطن الأرض يحتوشها البلى ، بينما تشهد بقايا آثارها الهندسية فى صمت على أن الإنسان له عينان ولكنه لا يرى بهما . أما فيما يتعلق بالثقافات الأكثر تبكيرا والبينات الدالة على البدايات الساذجة للنوع البشرى ، فإن محراث الفلاح مازال يعمل فيها ظهرا لبطن ، ثم لا نلبث أن نسقطها من حسابنا ونغفل أمرها باعتبارها شيئا لا يهمنا .

فالأدوات الحجرية المصقولة التى اكتشفت بالمصادفة ظنها الناس صواعق نزلت من السماء ثم تحولت إلى حجر .

أما الرأى العجيب الذى تخيله لوكريتس من أن الناس استعملوا ذات يوم الحجر كأدوات قبل أن يتعلموا كيف يشكلون المعدن مما يتضمن قرونا طويلة مضت وعفى عليها النسيان ـ هذا الرأى كان يبدو بعيد الاحتمال بحيث لم يؤخذ مأخذ الجد .

وبيدء القرن التاسع عشر بدأ العلماء أمثال ليبارد يهتمون بآثار آسيا

الصغرى التى لم يسبق تفسيرها و بدأ الهواة من أمثال لوشيه دى پيرث فى عمل مجاميع من الأحجار المشكلة التى تعرفوا عليها باعتبارها كانت أدوات يستخدمها الرجال البدائيون .

ثم فاجأ داروين عالم منتصف القرن التاسع عشر بوجهة نظر ، قوامها أن الإنسان يمت بنسب عضوى أكثر قدما مما سبق للناس احتسابه .

و ببطء أولا ، ولكن بخطو آخذ فى الإسراع ، احتقر الناس البقايا المتخلفة من ماضى الإنسان على هيئة عظام واكتشفوا الأشياء التى صنعها بيديه، والتى قاومت الزمن ولم يصبها البلى .

ولقد أصبح العلماء المدربون على درجة مدهشة من المقدرة والمهارة فى استنباط المعلومات والأدلة من تلك المادة المشاكسة .

وهكذا فى أقل من قرن من الزمان اكْتُشِفَ عالم شاسع ؛ وهو العالم الذى انبثقت منه حضارتنا ، ومثل الشرنقة التى تتركها الفراشة فإنها تنساها .

وهذا العالم الشاسع الواسع كان عالما جديدا على الرغم من قدمه قدم الإنسان نفسه .

والآن ـ لأول مرة ـ استطاع الإنسان أن ينظر إلى الوراء ويلقى نظرة و يأخذ فكرة ـ تفتقر إلى التثبت فى نقاط منها ـ عن الطريق الذى عبره والشوط الذى قطعه، والوقت الذى أنفقه عبر هذا الطريق والزمان الذى استنفده طوال هذا الشوط .

أصل المدنية

لقد أصبح من الواضح أن نوع الحياة التى نعيشها ـ والتى نسميها متمدينة ـ واشتقاق الكلمة صحيح من الكلمة اللاتينية Civilis أومتمدن فى المدنية ـ هذه الحياة حديثة جدا فى تاريخ الإنسان .

ووجود حالة تلازم بين المدنية والمدن يقوم على مبدأ صحيح وعلى بينة زاخرة بالأدلة . فلم تنشأ مدنية أبدا بدون مدن ؛ إذ لاغنى عن المدن إذا وصل الاقتصاد إلى درجة من الثروة والتعقيد تمكنه من أن يساند مدنية ويقيمها [1] .

وأثناء العصور الطويلة عندما كان الإنسان صائدا للوحوش أوللأسماك ،

---

١ نى أتخذ هنا منسوبا أعلى وإن كان أضيق للمدنية من توينبي مثلا . ذلك أن توينبي يدرج فى مؤلفه الشهير ـ دراسة التاريخ ـ الإسكيمو والبولينزيين والثقافات الأيرلندية القديمة التى عاشها قوم رحل ـ كأمثلة للمدنية .

ولم تكن عند أى من تلك الأمثلة مدن بالمعنى الصحيح ولم تكن تلك الأمثلة مدنيات .

وعلى أقصى تقدير يمكننا القول بأن بعض البواعث الابتكارية الخلاقة كانت نشطة فى أيرلندا القديمة و بولينيزيا ـ وأن الإسكيمو كانوا على جانب عظيم من المهارة والقدرة لاشك أنه تحتم عليهم أن يكونوا كذلك وإلا بادوا وهلكوا) .

ولكن إذا أدرجنا الإسكيمو والبولنيزيين تحت المدنيات ، فلم لاندرج أيضا ثقافات الشاطىء الشمالى الغربى والممالك الأفريقية والمناطق الآهلة بسكان الجنوب الغربى وحضارات أخرى مختلفة ؟؟ وعندى أن العامل الدافع للمدنية هو عامل اقتصادى .

أوجامعا لما يقتات به، وطوال العصر الحفرى القديم فى الحقيقة لم يكن اقتصاده ليسمح بتجمعات كبيرة من الناس فى منطقة واحدة ولذلك كان عاجزا عن إقامة مدنية .

ولقد قدرت المساحة اللازمة لإعاشة شخص واحد فى مجتمع صيد ـ بعشرة أميال مربعة تقريبا ـ وطبعا تزيد تلك المساحة فى حالة قلة الموارد .

وهكذا فإن الأسرة المكونة من خمسة أوستة أفراد والتى تعيش على الصيد تحتاج إلى مساحة من الأرض أكبر بكثير من المساحة التى تحتاج إليها وحدة زراعية من نفس الحجم .

ومعنى ذلك طبعا أن السكان الذين كانوا يعيشون على ذلك النوع من الاقتصاد كانوا قليلى الكثافة وأن مسافات تجمعاتهم كانت بعيدة وأنه كان يتعين على كل وحدة من السكان تحتل رقعة من الأرض أن تكون مكتفية بذاتها وأن تتقن المهارات اللازمة للمحافظة على الحياة .

وكان على كل صائد أن يصطاد قوته وأن يصنع عدته بنفسه . وكانت الحياة ـ بالضرورة بسيطة تقوم على الترحال من مكان لآخر .

ولقد بدأ إدخال الزراعة فى العصر الحجرى الحديث فى إنهاء حياة الاكتفاء الذاتى القديمة ، وإن كانت لم تتقدم كليا .

فالزراعة ـ حتى على المستوى البدائى جدا ومقدرتها الإنتاجية الواطئة ـ

لم تظهر إلا منذ حوالى ثمانية آلاف أوعشرة آلاف سنة .

وقد جلبت الزراعة تغييرات كثيرة ، ولكن كان من جرائها على وجه الخصوص أن الحياة أصبحت أكثر استقرارا واستكانة . إذ تعين على كل أسرة أن ترتبط ـ بالضرورة ـ بأرضها إذا أرادت أن تجنى ثمار عملها وكدها و إذا رغبت فى الإفادة من الأرض عاما آخر .

ثم إن حياة الاستقرار شجعت على إقامة مساكن دائمة ؛ إذ أصبح من المجدى ـ وقد خلد الناس إلى الراحة والدعة والاستقرار ـ أن يبذلوا مجهودا فى بناء البيوت لكى يستقروا فيها أكثر من فصل واحد قصير كما كانوا يفعلون من قبل . ولذلك احتاجوا إلى أدوات حجرية أكثر دقة وصقلا لكى يستعملوها فى أعمال النجارة وتيسر استعمال الفخار بعد أن لم يعد الناس بحاجة إلى حمل متاعهم باستمرار من مكان لآخر ، وحلت الأنوال والأدوات المغزولة محل جلود الحيوانات التى أبطل صيدها ، أو انعدم وجودها فى الرقعة المزروعة .

ولقد تبين من عمليات التنقيب التى قام بها علماء الحفائر أن مراكز الاستيطان فى العصر الحجرى الحديث كانت تدل على تزايد فى تركيز السكان فى رقعة أو بقعة واحدة .

و إن كانت الحياة مع ذلك ظلت على مستوى الكفاف مع استمرار كل

أسرة فى إنتاج حاجاتها . وكان الفائض الموجود فى ذلك النظام الاقتصادى الجديد ضئيلا ، ولكنه كان كافيا لإقامة بعض الأسواق ولتشجيع نوع من التخصص فى العمل .

ولم يتقدم الاقتصاد إلى درجة توافر الفائض إلا بعد اكتشاف المعادن التى استعملها بعض الناس كعملة يدفعونها لغيرهم لقاء أعمال متخصصة يؤدونها لهم .

وبذلك استطاع هؤلاء العمال أو الصناع الذين يكسبون عيشهم بهذه الطريقة أن يعيشوا فى المدن ؛ إذ أن عملهم لم يكن مطلوبا فى الحقول الزراعية . وعلاوة على ذلك فمع زيادة ثروة الفلاحين وتكاثر عددهم فإنهم لم يحتاجوا إلى الدفاع فقط ضد الجماعات المغيرة المحيطة بهم فحسب ، ولكنهم احتاجوا إلى نظام اجتماعى قادر على تنظيم العلاقات الآخذة فى التركيب والتعقيد التى صاحبت ظاهرة تركيز السكان فى بقعة واحدة .

وقد اقتضى كل ذلك نوعا من المركزية جعل من المدن ضرورة وسبيلا لتيسير الحياة فى نفس الوقت . وأصبحت المدن مراكز للدفاع والحكومة والدين والتجارة والصناعة .

وكأشكال أولية أو إرهاصات للمدنية ، ظهرت أول ماظهرت فى عصر النحاس وباكورة العصر البرونزى حوالى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد أو منذ ٥٥٠٠ سنة تقريبا .

وهذا هو بدء ما أسماه الأستاذ تشيلد . بالتطور المدنى . ـ وهو بدء ما يسميه بالمدنية بكل مظاهرها الضرورية ونواحيها اللازمة .

ومن تلك النقطة فصاعدا بدأ الماضى يتخذ اسما ونسبا ، وانتهى عصر الماضى المجهول الاسم والنسبة ؛ إذ بدأ أناس معينون لهم أسماء معروفة وأعمال مقررة يأخذون مكانهم ويحتلون مراكزهم فى التاريخ .

واستطعنا التعرف على تطورات معينة تنسب إلى السومريين والبابليين والحيثيين والمصريين . ونحن نعرف أسماء بعض القبائل الغازية التى لعبت أدوارا هامة فى تسلسل المدنية .

وبذلك أصبح للتاريخ شخصيات معروفة لكل منها دورها على مسرح الأحداث .

دورات المدنية

لقد كان ذلك الظهور لشخصيات المسرحية على مسرح الأحـداث التاريخية بدخولهم وخروجهم بعد انتهاء أدوارهم وتقلبهم فى أعطاف الرفعة أو المجد ثم زوالهم من الوجود ؛ تلك الأحداث على مسرح التاريخ هى التى تجسم لنا ظاهرة اتسع انتشارها ، قوامها أن الأحداث وليدة المدنية ذاتها .

وهذا هو الاتجاه الذى يعتبره البعض قانونا ثابتا لا يتغير للمدنيـة يحكم مسارها فى دورات قوامها موجات من الارتفاع تعقبها موجات من الانخفاض ، ثم الانحلال والارهاق ، ثم الفناء .

وتختلف الكلمات المستعملة لوصف تلك العملية ، ولـكن الصورة العامة واحدة،وهى صورة تتناقض تناقضا حادا مع التساوق المستمر الموصول. ولقد لفتت تلك الدورات انتباه البروفسور توينبى وجددت اهتمامه حديثا بمحاولة أن يجد فى تاريخ كل المدنيات الترتيب أو الانتظام الذى يفسرها والذى ربما يمكننا من أن نلاقى المصاعب والمشكلات التى تحيق بمدنيتنا ملاقاة على شىء من البصيرة والمعرفة . وتحليل توينبى يتميز بنوع من الجمود يرفضه بعض النقاد . وعلى الرغم من أنه قد دحض المفهوم العضوى الساذج الذى

نادى به شپنجلر فإنه رتب تتابعا تمر به المدنية وجعل منه أمراً حتميا وقدرا مقدورا .

وهذا الرأى فى المدنية لاقى قبولا وتأييدا كبيرين ؛ لأنه يعكس فكرة شائعة قوامها أن التاريخ بالمنهاج الذى اصطلح عليه وتواضع عليه المؤرخون قد أسهم كثيرا فى تجميدها فى عقولنا .

ذلك لأنه يصور المدنية على اعتبار أنها تبدأ بمولد ، ثم بطفولة ، ثم بمرحلة رشد ثم تنتهى بمرحلة الشيخوخة والهرم ، ثم الموت . وعلى الرغم من أن الحرية الأدبية المفرطة هى المسئولة جزئيا عن هذا العرض للتاريخ فإنها تذهب إلى أبعد من ذلك فى تلك التفسيرات ، كتفسير شپنجلر مثلا حيث يصف المدنية المعاصرة لغرب أوربا على هذا النحو من التتابع المحتوم أو الدورة العضوية وأنها قد استوفت مدتها ووصلت إلى مرحلة الشيخوخة المتأهبة للموت ، ومن بين الصعوبات التى تحيق بنا فى تحليل تلك المشكلة هو الافتقار إلى كلمات دقيقة ومميزة فى حوزتنا .

فنحن نتكلم عن المدنية الفرنسية والمدنية الغربية ، وإحداهما هى مجرد وجه محلى للأخرى .

وليس لدينا اسم نطلقه على ذلك الأثر الطويل الموصول الذى بدأ فى وادى دجلة والفرات واستطاع أن يعيش حتى وقتنا الحاضر .

وإلى جانب ذلك فإن تواريخنا تكتب عموما عن الأمم . فلدينا تاريخ الاغريق والحيثيين والمصريين والرومانيين وفى وقتنا الحاضر تاريخ الفرنسيين والبريطانيين والألمان . وحيث إن إطار تلك التواريخ إطار سياسى فإن هذا الإطار يحوى فى طياته كل ماعداه ، بل ويخضع كل شىء له ــ حتى المدنية .

وعلى هذا الأساس عولجت أوجه النشاط الثقافى التى ازدهرت بين الحيثيين أو فى المدن الحرة الاغريقية على أساس أنها مدنيات مميزة منفردة كما لو كانت لا تمت بصلة للمدنيات الأخرى المعاصرة بحيث ينتهى أمرها وتتلاشى بانتهاء وتلاشى شخصياتها السياسية . إن قرن مدنية معينة بأمة يخلق تخليطا عندما نتكلم عن المدنية معزولة عن مظاهرها المحليةوالقومية ، وهذا يقوى ويؤكد فكرة حتمية الفناء كمصير لكل المدنيات لأن كثيرا جدا من الذين قاموا بأدوارهم على مسرح الأحداث فى تاريخ المدنية قد اختفوا وتلاشوا .

ولكن حتى إذا فسرنا مسار المدنية لا بالقياس إلى مصائر أمة ولكن بالقياس إلى تطورها فإننا مازلنا نلاحظ فكرة التقدم على شكل دورات حتى فى التفسير الأخير وقد يبدو هذا لأول وهلة ــ مختلفا عن تطور ونمو الثقافات الأكثر بساطة التى سبقته .

وفى الآلاف ـ مئات الآلاف من السنين التى سبقت ظهور المدنية ـ يبدو أن تطور الثقافة قد قطع شوطا متصلا مستقيما مع ما أضيف إليه ولحق به من من تقدم تكنولوجى ازداد تدريجيا فى تنوعه وعدده وكفايته .

ونستطيع من اقتفاء أثر بقايا تلك الثقافات القديمة أن نتبين الأساليب البطيئة التى اتبعت لاتقان تشكيل الحجر ، تلك التى بدأت بنوع فج من الشطف وانتهت بوسائل فى منتهى الدقة والمهارة . ونرى من وقت لآخر إضافة اختراعات مثل الغزل وصناعة الفخار والعجلة وتربية النباتات واستئناس الحيوانات والعدد المختلفة لتوليد القوة وعديد من المخترعات الأخرى وغيرها من الكماليات . وبمجرد الوصول إلى اختراع مايضاف إلى قائمة الاختراعات الأساسية ؛ فإنه كان يبقى ولايضيع وإنما كان يضاف بصفة دائمة إلى التراكم المتزايد للثقافة بحيث يخصبها ويزيد من ثروتها وينميها ويزودها بعناصر لتركيبات جديدة واختراعات جديدة ، واضعا فى يد الإنسان القدرة على تثمير بيئته والافادة منها على نحو أكثر فاعلية مما كان الأمر عليه من قبل . كل ذلك يؤدى إلى فكرة تقدم المدنية فى خط مستقيم موصول بدون حدوث تلك الصفة الدورية التى تربطها بالمدنية فتبدأ بالميلاد وتنتهى بالشيخوخة والموت .

ولو أننا عرفنا أكثر عن تفاصيل الماضى السحيق فى القدم فإن بعض هذا التطور المستقيم يبدولنا منقسما إلى مراحل تتكون من جزيئات وعناصر ذات

تركيب يمتاز بدرجة معينة من القوة النابضة . ومظهر التقدم الموصول هو ـ جزئيا ـ نتيجة للبعد الزمنى وضياع التفاصيل .

ولكن هذا الضياع ليس كليا .

لأننا إذا فحصنا الثقافة البدائية فحصادقيقا فى خلال فترة طويلة من الزمان فإن الازدهار أو الأفول اللذين يبدوان لنا هما أكثر وضوحا عادة فى التغييرات التى حدثت فى تصميم الأوانى الفخارية أو بعض الأساليب الأخرى المعبرة عن تلك الفترة من بيئة حقيقية دالة على فقدان الأساليب أو النزول من مستوى ثقافى إلى مستوى أوطى منه .

فإذا نحينا جانبا التغييرات التى تحدث نتيجة إحلال تقليد محل آخر على أثر غزو أو تعديل فى علاقة الإنسان بالبيئة ـ فغالبا أن مايبدو لنا انتكاسا إلى الوراء قد يكون بالفعل إعادة تشكيل الأدوات الموجودة لكى تلائم بعض التغير الحادث فى الاقتصاد . فمثلا قد تفقد معالم مهارة فنية أتقنت فى إتمام أو إنجاز أداة من الأدوات فى عملية تشكيلها التالية أو فى صيغتها التالية ، ولكن ذلك قد يكون الملاءمة المصاحبة للتغيير بدلا من أن يكون تدهورا كما هو الشأن فى أول أشكال لسياراتنا التى كانت من الوجهة الفنية والصناعية تمثل تقدما إلا أنها فى الواقع كانت من الوجهة الجمالية أقل فى الأسلوب والتصميم من أحسن العربات المطهمة التى كانت موجودة قبل صنع السيارات .

وهذا التميز لم يلق من علماء الآثار حتى الآن ما يستحقه من الفحص والدرس ، وقد أكون قد بالغت فى توكيد أهميته ، ومع ذلك فستظل الحقيقة ماثلة وهى أنه بمجرد أن نصل إلى المستويات التى نسميها مدنية فإن الطبيعة الدورية لتطورها تصبح وجها من أوجهها بالغ الأهمية أكثر بكثير من قبل .

والأسئلة التى يتعين علينا أن نسألها هى :

هل المدنية قابلة للتقسيم إلى عدد من المراحل المميزة التى تكاد تكون لا ارتباط بينها ؟

أم هى عملية متصلة موصولة لاتصاب بكسر كلىّ أو توقف ولكنها تمر بتغيير مستمر ؟

ومن المهم عند فحصنا لهذه الأسئلةأن نتذكر نوعا من التفرقة التىسبقلى الإشارة إليها ، ألا وهى التفرقة بين المدنية والوعاء القومى المعين الذى قد يحتوى على جزء من الكل .

وهذا الشكل قليلا ما ينصف تعقيد المدنية وأنواع تعبيراتها المتعددة أو يفيها حقها .

فأى قوم فى حالة انفلات من الهجمية فإنهم يقترضون من المدنية الأكثر قربا منهم ومنالا لهم ، إما لعامل الجوار ، أو لعامل التقاليد .

وما يقترضه شعب من آخر من مدنيتــه فإنه يحوله إلى مظاهر محليــة أو قومية تتسم بأسلوبها الخاص ، وفى بعض الحالات قد تؤثر تأثيراً عميقا فى التيار الرئيسى للمدنية التى هى جزء منها .

وتحطيم الجانب القومى من مدنية معينة لايعنى تحطيم كل التقاليد المرتبطة بهذا الجانب ، على الرغم من أن فقدان ذلك الجانب قد يكون من أشق الأمور وأكثرها ايذاء . لذلك ينبغى أن تــكون هناك تفرقة بين المدنيات و بين جوانبها القومية .

وفى مدى الخمسة أوالستة الآلاف السنة التى وجدت فيها المدنية ظهر عدد كبير من الأمم والدول واختفى ، ليس فقط فى أماكن مختلفة ولــكن تباعا ووراء بعضها فى نفس المــكان،ومن الواضح أن بعضها قدفقد حيويته كوحدات سياسية منظمة لها كيانها ، و بالتالى انقرضت وانمحت ، ثم ترتب على ذلك انقراض النمط المعين لمدنيتها كعملية مصاحبة لفقدان الــكيان . والبعض الآخر ـ بدون خطأ أوجريرة من جانبه ـ حطمته قوى خارجية لم يملك حيالها دفعا . و يتضح من البينات الخاصة بعلم الآثار والحفريات أن الحرب على نطاقها الجدى و بصورتها الشاملة لم تبرز فى الصورة إلا فى أواخر العصر الحجرى الحديث عندما أصبح المزارعون الأوائل ـ نتيجة عملهم وكدهم ـ على درجة من الثروة والفائض فأصبحوا صيدا ثمينا استهدف لطمع جيرانهم .

ولكن الحرب لم تتطور إلى مداها المشئوم كعملية منظمة إلا فى العصور المعدنية عندما اكتمل رشد المدنية إذ أصبح الجزاء المادى للمنتصر عندئذ ـ جزاء ضخما ـ وقد بدأت زيادة السكان ذاتها فى إحداث ضغوط مماأدى إلى إيجاد بواعث تختلف تماما عن البواعث العرضية التى كانت تحفز رجال القبائل على الغزو كيفما اتفق ، ولكن الأمر اختلف ، فخطط الابادة والغزو والرق ساعدت على تغذية أطماع الملوك وعلى سد الحاجات الناجمة من تزايد السكان وكثرتهم ثم على توفير العمل الذى تطلبه الاقتصاد الجديد الذى ازداد تعقيدا وتركيبا .

وهكذا فان بعض مراكز المدنية التى تعيش آثارها اليوم من حطام وأنقاض القديم ربما كانت ضحايا القوة المدمرة للعناصر الخارجية ، وأن إضافتها إلى ركام وأنقاض الماضى ربما كان عرضيا وليس نتيجة دورة عضوية تفضى إلى الاضمحلال والانقراض والموت .

ولكن يجب ألا نخلط بين مصائر الدول والأمم والامبراطوريات وبين المدنيات التى كانت تلك الدول والأمم أو الامبراطوريات جزءا منها ، والتى كانت تستمر (أى المدنيات) فى الازدهار حتى بعد زوال الأحداث السياسية بمدة طويلة ـ ذلك أن الوحدة السياسية سواء أكانت دولة أم أمة أم امبراطورية لم تكن سوى مجال تعبر به المدنية عن نفسها .

استمرار المدنية

ما الذى يحدث إذن للمدنيات منفصلة عن مظاهرها التى تتجلى فى الدول أو الأمم ؟ فلنفحص أطولها عمرا .

وعلى الرغم من وجود الفكرة الشائعة عن زوال المدنيات آخر الأمر مع مرور الوقت إلا أن هذه الفكرة ليست بالضرورة صحيحة .

ففى العالم القديم كانت توجد أربع مناطق بارزة مميزة حيث رسخت جذور المدنية فى وقت مبكر من التاريخ ، ثم مالبثت أن انتشرت فى الأرجاء المجاورة حيث نشأت منها مظاهر جديدة .

أما المناطق الأربع فهى : مصر ، والشرق الأدنى ، والهند ، والصين . ومن المحتمل أن تكون المدنية فى مصر والشرق الأدنى أقدم من مدنية الهند والصين . ولذلك فقد كانت المدنية فى مصر والشرق الأدنى مسئولة عن انتشار التقدم التكنولوجى الذى يعزى إليه كذلك انبعاث تطورات مشابهة فى المناطق الشرقية البعيدة[1] .

---

(١) ربما يكون محتملا كما ذكر هين جيلديرن فى كتاب أصل المدنيات القديمة (ديوجن يناير سنة ١٩٥٦) ــ أن المدنية نشأت بالفعل أولا فى الشرق الأدنى ثم انتشرت من هناك إلى المناطق الثلاث الأخرى التى اعتبرت بؤرات لنشوء المدنية وتطورها .

فكما أننا نجد فى توزيع النباتات أكبر عدد من المتنوعات قريباً من مركز مدنية ما ـ كذلك الأمر بالقياس إلى منطقة الشرق الأدنى فإننا نجد أن أعظم أنواع الترف وأشكال المدنية وأنماطها تظهر فى تلك البقعة .

وفى حالة الصين فإن تطور واستمرار مدنيتها ظل موصولا قرابة ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة .

فقامت دولة ملكية وراء الأخرى ـ أحيانا بثورة داخلية وأحيانا بغزو وهجوم من القبائل الرحل المجاورة ـ ولكن معظمها جاء من منغوليا ومنشوريا التى أحلت طبقة حاكمة محل أخرى مراراً وتكرارا . ولكن خلال وطوال تلك التغييرات السياسية والاضطرابات ظل لب المدنية الصينية سليما قائما بلا مساس .

حتى المركز النابض الخلاق لكل ما كانت تمثله مدنية الصين كان ينتقل من وقت لآخر بانتقال العاصمة من مدنية لأخرى . وفى فترة ما عندما انقسمت الصين إلى المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية كان لكل منهما عاصمته .

ولكن ... طوال كل تلك التقلبات لم تفن المدنية الصينية وإنما كانت

تنبثق بعد كل حلقة من الأحداث ، وقد انتعشت على نحوما ، وجدّدت نشاطها وقويت .

واليوم نرى الصين بعد فترة ركود وكبوة قد أقيلت من عثرتها وهبت من رقدتها وتجلت مرةأخرى قوتهاوحيوتهامما يكذب فكرة أن المدنيات القديمة تموت أو تذوى وتذبل و يصيبها الكلال كعجائز الجنود .

وصحيح أن الصين التى نعرفها اليوم بوضعها الحاضر قد تأثرت تأثرا عميقا بنظام سياسى أجنبى و بمدنية غريبة عنها دخيلة عليها .

ولا جديد فى ذلك بالقياس إلى تاريخ الصين . ولم يمض على تلك التجربة وقت كاف لكى نعرف إذا ما كانت الصين ستمتص وتلائم تلك الأنظمة الدخيلة عليها وتعدلها بحيث تندغم وتندمج فى مدنيتها الأساسية كما فعلت فى الماضى حيال تأثيرات أخرى ــ أم أنها ستكون امتدادا شرقيا لطريقة الحياة الروسية .

والشىء الهام الذى يعنينا فى هذا الصدد هو أن الشخصية الصينية ظلت حية ولم تُغلب على أمرها ، أو تُقهر ، أو تحطم ، وما زالت أمامها فرصة الاستمرار كمدنية صينية .

وثمة حقيقة أخرى وهى أن الصين كان وضعها فريدا فذا من بين كل

مراكز المدنية ، وهو أمر قد يفسر لنا جزئيا ظاهرة بقاء واستمرار تقاليدها مع الاحتفاظ بقوة تلك التقاليد التى اشتهرت بها عبر القرون .

ولقد تطورت الصين فى حالة عزلة نسبيا ودب النشاط فى أوصالها عندما لقحت من وقت لآخر بأفكار أجنبية من الخارج ولكنها كانت بعيدة جدا من مراكز المدنية الأخرى المعاصرة بحيث ظلت بمأمن ومنجاة من أى تهديد جغرافى . فالهند ــ التى كانت مصدر المذهب البوذى الذى حمل فى طياته حشدا من الأفكار تسببت فى تنشيط وتقوية المدنية الصينية ــ كانت بعيدة جدا عن الصين بحيث لم تزعجها أو تتدخل فى تطورها .

أما الغزوات التى قاست منها الصين فعلا فقد أتت من رجال القبائل البربرية التى كان هدفها مجرد السلب والنهب ثم الفرار ، وحتى فى حالة بقائها للغزو فلم تكن تلك القبائل البربرية على شىء من المدنية لكى تحلها محل المدنية التى أخضعتها .

بل كان الأمر على النقيض ؛ فلعجز تلك القبائل البربرية عن تحطيم المدنية الصينية ومحوها ، فإنها اندمجت فيها ، وسرعان ماجرفت فى تيارها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن عدد السكان الهائل الذى كانت تضمه الصين جعل من الصعب على مدنيتها أن تكون فريسة لعملية إفناء أو محو مقصود

وخصوصا فى مملكة مترامية الأطراف شاسعة المساحة تسهل عملية الكر والفر والانسحاب ثم الانقضاض وهكذا .

وينطبق شيء من نفس التاريخ على الهند . فإذا أرّخنا بدء حياتها المدنية من الوقت الذى ازدهر فيه حكم هارابّا وموهنچو دارو ، فمعنى ذلك أن الهند تبوأت مكانها فى الوجود منذ ٤٥٠٠ سنة على الأقل .

ولكن الهند كانت أقرب إلى مراكز المدنيات الراقية فى الشرق الأدنى وكانت من الناحية الجغرافية أكثر منالا لأقوام الشرق الأوسط ، ولهذا خضعت الهند لتأثيرات تلك الحضارات بشكل أعمق وأكثر من الصين .

والغزوات التى قاست منها الهند خلال تلك الفترة وبعدها كانت أكثر تأثيرا وكسرا لمدنية الهند عما كانت الحال عليه فى الصين التى تميزت بنوع من الاستمرار الموصول (الذى لم يتعرض لكسر أو تفتيت) بل ظل موصول الحلقات عبر القرون .

ولكن ، وعلى الرغم من ذلك فقد احتفظت الهند بشخصية هندية طوال وخلال تلك القرون. حتى سيطرة البريطانيين لمئات السنين على الهند لم تستطع أن تغير الأنماط الأساسية الأصلية لمدنية الهند ، على الرغم من أنها أدخلت فيها بعض نواحى المدنية الغربية . ومثلما كانت الحال فى الصين فإن مركز النشاط الخلاق كان يتنقل فى تلك القارة الصغيرة . وعلى الرغم من أن تلك الانتقالات

الجغرافية العديدة كانت تقترن بصفات خاصة مشتقة من التأثيرات المحلية فتترك بصماتها عليها ، إلا أن تراث الهند ظل قائما يسلمه جيل للجيل الذى بعده ربما معدلا ، ولكنه كان موصول الحلقات .

ولقد مضت كل من الصين والهند فى مراحل توسعية استطاعتا خلالها أن تقيما مدنيات تابعة لها اختفى بعضها واستمر البعض الآخر .

وتلك الذرارى والفروع التابعة للمدنيات التى تولدت منها أبدت ميولا قوية للتقليد ولكنه تقليد ملون بالصبغة الأصيلة الموجودة فى الكيان الأصلى للمقلد . وبمرور الوقت اندغمت الثقافة المحلية واندمجت فى الثقافة الوافدة عليها من خارجها .

وبهذه الطريقة انتشرت بؤرة المدنيات الصغيرة الأصلية من دلتا النهر الأصفر فى الصين ووادى الهندوس فى الهند إلى كوريا واليابان والهند الصينية (بما فى ذلك تشام وكمبوديا) ـ وتبت وسيام وآسام وجاوة وهكذا . . . . .

وإنه لجدير بالتنويه والملاحظة أن انتشار وتسرب وسريان المدنيتين الصينية والهندية لم يفض إلى إبادتهما ومحوهما من المراكز الأصلية لتطورهما .

ويبدو من البينات المتوافرة لدينا من علم الحفائر والآثار أن المدنية فى الغرب أقدم منها فى الشرق .

وعلى الرغم من صعوبة تحديد نقطة البداية فى حالة شىء سديمى بهذه الدرجة مثل ظهور المدنية ـ بما يشفى غليل كل باحث ـ فان معظم الثقات من العلماء يتفقون على أن بدء المدنية فى مصر يرجع إلى خمسة آلاف سنة على الأقل ، وربما كان أقدم من ذلك فى منطقة مابين النهرين (دجلة والفرات) .

ولقد تمكنت مصر ـ لأسباب تختلف عن الصين والهند ـ من الاحتفاظ باستمرار ثقافتها وكيانها وشخصيتها الثقافية لمدة تماثل مدة الصين والهند ـ أى حوالى ثلاثة آلاف سنة إذا جعلنا تاريخ نهاية مصر الفرعونية ببدء حكم البطالسة والغزو الرومانى .

وعندما حل العرب محل الرومان كانت المدنية المصرية قد انقرضت منذ زمان بعيد ، ولم يبق من أثرها ـ عندئذ كما هى الحال اليوم ـ إلا صدى لماض مجيد رائع .

ومع ذلك ففى خلال تلك الفترة كانت روح الثقافة المصرية واضحة المعالم بارزة الملامح .

وربما ـ أكثر من أى مكان آخر ـ كانت أنماط تغييرها وأشكالها محافظة ومستقيمة وثابتة .

وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نتبين تنويعات وتغييرات فى الأساليب فى

قوتها الخلاقة طوال تلك الفترة من الزمان ـ فإن الملامح المميزة للمدنية لم تتغير إلا تغيرا طفيفا ولعل الوضع الجغرافى الخاص النادر المثال لمصر تعزى إليه تلك الظاهرة الجديرة بالاهتمام .

فخصوبة تربة وادى النيل التى تجدد نفسها من عام لآخر بوساطة الغرين الوافد من أعالى جبال الحبشة البعيدة زودت مصر بمعين لاينضب من الثروة بالقياس إلى محصولها .

وبذلك كان اقتصادها على درجة كبيرة من الثبات مع دوام المعين .

لأن قلة الموارد وتقلبات المناخ التى تؤدى إلى حركات توسعية وهجرة إلى أماكن أخرى ـ كما حدث فى حالات أخرى وقعت تحت تلك الظروف ـ لم تحدث فى مصر لوفرة الموارد وثبات المناخ .

وتحفّ بوادى النيل من الجانبين مساحات شاسعة من الأراضى الجرداء التى كانت بمثابة خنادق جافة تحمى البلاد من الأعداء الغزاة وتحول بين نشوء مدنيات تنافسها على تخومها المباشرة .

وهكذا استطاعت مصر أن تحمى نفسها لفترات طويلة من الزمان من هجمات وغزوات القوى الطامعة فيها وإلى جانب ذلك فإننا إذا نظرنا إلى مستوى مدنيتها فإنها لم تقم إلا بمحاولات قليلة لكى تنشر ظلها وتمد قيادتها فيما وراء النيل أو تقيم مدنيات فرعية تستمد وحيها مباشرة منها .

وحتى غزو الحيثيين لم يعمر طويلا بل كان ضئيل الأثر فى انحراف تقاليدها عن طريقها المرسوم .

أما التأثيرات المصرية فكانت تنبع أساسا من الامتداد الثقافى بوساطة التجارة .

وبعد ذلك عندما أصبح شرقى البحر المتوسط كله زاخرا بمراكز المدنية المنتشرة فإن مصر تأثرت بتلك المدنيات وأثرت بدورها فى تلك المدن والامبراطوريات المزدهرة . ولكن الموقف كان مختلفاً فى الشرق الأدنى ، فعلى الرغم من أن المدنية فى أكمل معانيها نشأت أولا هناك فى منطقة دجلة والفرات فإنها لم تظل حبيسة تلك المنطقة وإنما انتشرت فى معظم الشرق الأدنى ، ذلك أن تلك المنطقة ـ إذا قارناها بمصر ـ كانت تجيش بالشغب والاضطرابات والقلاقل والتنافس بين الدول والامبرطوريات، فمرارا وتكرارا تعرضت بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) لغزو القبائل المحيطة بها وأخيرا أصبح الشرق الأدنى كله مسرحا لتلك الأحداث تارة بالهجوم والغزو من خارجه وتارة من داخله بثورة الأقوام التى هزمت وغلبت على أمرها . وعقب كل ثورة يقذف الخلف بالسلف وينشىء مدنا جديدة وممالك جديدة وإمبراطوريات جديدة .

ونحن نعرف عددا كبيرا من دول الملوك التى برزت فى تاريخ تلك

المنطقــة وأحداثها وعددا كبيرا من الجماعات المختلفة فى اللغــات والثقافات والأجناس وكانت كلهــا فى حالة تنافس وعراك بعضهــا مع البعض الآخر تهدم كل قوة منها القوة الأخرى.

ولعلنا إذا ذكرنا أسماء بعضها نعطى فــكرة عن تعقد تاريخ تلك المنطقة. وأقدم تلك الجماعات هم السوميريون الذين اتحدوا بعــد ذلك مع الأكاديين الذين جاءوا من الشمال .

وبعد ذلك جاء البابليون والميثانيون والـكاسيون والأشوريون والحيثيون والميديون ثم الفرس والـكلدانيون والبارثيون والساسانيون والعرب والأتراك . مع العلم بأننا أغفلنا ذكر الدويلات التى تمتعت بفترات من الاستقلال الذاتى لمدد مختلفة .

وثمــة مسوغ للاتجاه العــام لاعتبار تلك الدول الملــكيــة القديمــة والامبراطوريات كمدنيات مميزة، مرده إلى حقيقة قوامها أن أكثرها نشأت من أصول ثقافية متعددة ترجع إلى جماعات مختلفــة اللغات والأجنــاس اصطنعت تركيبا جديدا وملامح خاصة لها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا التنوع والاختلاف والتعــدد فى حد ذاته سانَدَ وقوّى المفهوم العضوى للتــاريخ لأن الذى حدث هو توكيــد تلك

الاختلافات و إبرازها عندما حاول المؤرخون التميز بين الشخصيات المختلفة التى لعبت أدوارها على مسرح الأحداث واقتفاء آثارها وتقصى علاقاتها المعقدة وتصنيفها من خلال تواريخها المتشابكة .

وترتب على ذلك انبثاق تلك الأنماط التقليدية المجمدة التى جعلت لكل من السومريين والحيثيين والفرس مثلا ، مدنية مميزة مستقلة كما لو كانت لاعلاقة بين بعضها والبعض الآخر .

ولكن ذلك النوع من العرض لتاريخ الشرق الأدنى لا يظفر بالضرورة بتأييد أى عالم فى الآثار ملم بالحقائق وعلى بينة من الأمر .

فعلى الرغم من نسبة الوفيات العالية فى الممالك والامبراطوريات ، وعلى الرغم من تنوع واختلاف السكان فإن المدنية السابقة كانت أساسا للاحقة وحتى الامبراطوريات التى كانت معاصرة لبعضها كانت بينها من نقاط التشابه والاشتراك والالتقاء أكثر بكثير مما أدركه المؤرخون وجرى العرف بينهم على الاعتراف به .

ولم يختلف الموقف فى آسيا الصغرى عما حدث فى أوروبا . فكما أن روما هيأت أسس الحياة المتمدينة التى أقامت عليها أمم غرب أوروبا المتعددة أشكالها الخاصة بها من المدنية الغربية ، فكذلك الأمر بالقياس إلى الممالك

والامبراطوريات العديدة فى الشرق الأدنى فإنها أنشأت وبنت فوق أساس وتقاليد المدنية التى أقامها فى البداية السوميريون والأكاديون فى أراضى مابين النهرين (دجلة والفرات) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن اختلاف وتعدد الأجناس واللغات والثقافات المحلية الذى خلق فى أوروبا تنوعا كثيرا فى نطاق تقاليد واحدة وتسبب فى سلسلة من التنافس الحاد بين الدول ، كل ذلك شبيه بما حدث فى الشرق الأدنى منذ زمان بعيد .

ولو أن الطبيعة القومية والتنافسية للنظام الأوروبى تؤكد الاختلافات بأن تشير إليها على اعتبار أنها مدنية فرنسية أو مدنية بريطانية أو مدنية ألمانية إلا أن الحقيقة تظل قائمة ، وهى أن تلك المدنيات جميعا تعتبر أساسا أعضاء فى مدنية واحدة ذات تراث مشترك اشتق من روما ثم إن تلك المدنيات قد اقترضت من بعضها وتبادلت مع بعضها اقتراضاً وتبادلا على نحو شاسع وبسخاء .

ولعل بديهيتين فى علم الأنثروبولوجى لا تتضحان لنا وضوحهما أكثر مما هو الشأن فى الشرق الأدنى .

إحداهما :

أن مراكز المدنية تجنح إلى توسيع ونشر أفكارها فى المناطق المجاورة لها.

ولقد رأينا كيف حدث ذلك فى حالة الصين والهند ونستطيع أن نلاحظ نفس الظاهرة فى وقتنا الحاضر .

وثانيهما :

أن مراكز المدنية الجديدة ـ باستثناء عدد قليل منها ـ لا تظهر فجأة فى حالة اكتمال تامة البناء والتكوين كما لو كانت أثينا الأسطورة وقد انبجست شامخة البناء كاملة العدة من جبين الإله جوبيتر .

إن أمر المدنيات يختلف عن أساطير الآلهة ....

فمع أن تلك البؤر الجديدة للمدنية قد تصل بمرور الوقت إلى مدارج عالية من الرقى فى حركة تصعيدها أو تصطنع هيئات وأشكالا مختلفة فحسب إلا أنها تبدأ فوق الأسس التى ورثتها من المدنيات التى أتت قبلها .

وهكذا فإن المدنية التى بدأت حياتها فى مدن وادى دجلة والفرات امتد أثرها واتسع نطاقه بالانتشار وبإنشاء مراكز جديدة للنشاط حتى إذا ماوصلت إلى المناطق الموازية لساحل البحر المتوسط فإنها شملت آسيا الصغرى فى مدارها .

فعلى طوال شواطئ آسيا الصغرى انبثقت المدن الأيونية من المخلّفات المتراكمة من قرون المدنية .

وفى جزيرة كريت قامت مدنية شبيهة تأثرت جزئيا بمصر ورسخت لها جذور من نفس الطراز .

ومن تلك الأصول والمنابع والموارد وصل تيار من المدنية إلى اليونان يعرف محليا بالميسنية .

ولقد اقترضت اليونان كثيرا و بسخاء من جيرانها المتمدينين فى بداية الأمر ، بمقدار يفوق كثيرا ما تشير إليه كتب التاريخ التقليدية .

ولكن مابدأته اليونان بالنقل والنسخ والتقليد والمحاكاة حولته عبقريتها إلى ألوان وأنماط وأشكال و إجراءات أصبحت مميزة لها ومقصورة عليها ومن صنع يديها .

أما إلى أى حد تعتبر روما مدينة لآسيا الصغرى عن طريق الأتروسكيين الذين سادت مدنيتهم فى إيطاليا قبل مدنية الرومان فهذا أمر قد بدأنا أخيرا فقط فى إيفائه حقه من التقدير والاعتبار .

أما دين روما للإغريق فهو أمر معروف منذ وقت طويل . وهكذا فإن عمليتى التوسع و إعادة البناء فوق النماذج القديمة تسببتا فى حمل ونقل مدنية بلاد مابين النهرين (دجلة والفرات) بعيدا و بعيدا تجاه الغرب .

وأصبحت روما نفسها ــ بدورها ومع مرور الوقت ــ مركزا للتأثير . ولكن مما هو جدير بالاهتمام أن روما كانت تعنى بالقياس إلى مناطق البرابرة

فى الشمال والغرب أكثر بكثير مما كانت تعنى بالنسبة إلى الشرق حيث كانت هناك مراكز قديمة للثقافة استمرت موصولة التطور عبر طرقها التى اشتقتها لنفسها. وروما ــ كمنبع ثقافة لأوروبا ــ كانت فى الحقيقة تقوى وتدعم تيارين ثقافيين : أحدهما وارد من آسيا الصغرى واليونان الذى ظل يتسرب إلى القارة طوال آلاف السنين عبر الدانوب مسهما فى نمو الثقافة هناك . والتيار الآخر من المعتقد أنه وصل أوروبا عن طريق شمال أفريقيا .

وبسقوط الامبراطورية الرومانية فإن التأثيرات التى اصطنعتها روما فى فرنسا وإسبانيا وبريطانيا والبلاد الأوروبية الأخرى ــ توقفت عندئذ .

ولكن فى القرون التى تلت ذلك فإن مدنية روما التى اختلطت بالتقاليد المحلية زودت أوروبا الحديثة بمراكز الحياة المتمدينة الجديدة . ولقد استوعبت تلك المراكز فى باكورة تطورها وامتصت أفكارا من المصادر والموارد القديمة فى آسيا الصغرى ــ من الامبراطورية البيزنطية ، ومن العرب ، وكلهم وارثون لحضارة معقدة قد نمت وتطورت منذ وقت طويل فى الشرق الأدنى .

وإذن فوجهة النظر القائلة بأن الحضارة الغربية نشأت من روما واليونان فقط لم تعد تستند إلى أساس .

ذلك أن جذورها تمتد اتساعا وعمقا إلى الماضى البعيد فى بلاد ما بين النهرين

(دجلة والفرات) ــ وحياتها (أى حياة المدنية الغربية) كانت استمرارا موصولا من تلك البدايات .

ويترتب على ذلك أن أوروبا مع آسيا الصغرى وشمال أفريقيا تكون مدارا جغرافيا يمكن مقارنته بالصين والهند ــ تمت فى نطاقه هجرة تراث للمدنية ولكنه كان تراثا موصولا منذ بدايته .

وعلى خلاف نوع استمرار المدنية الذى حدث فى الصين والهند ومصر فإن هذا التراث الذى نجم من الشرق الأدنى كان له خط سير يتسم بالتنوع مما أدى ــ فى تاريخه الطويل ــ إلى إنجاب وإنتاج مظاهر ثقافية أكثر خصوبة ووفرة ودسامة من غيرها ، ثم إنه فى زماننا تخطى حدوده القديمة وقفز أشواطا مكنته من أن يتخذ له قواعد فى مناطق متفرقة متباعدة من الأرض .

وجدير بالذكر والملاحظة أنه فى قائمة توينبى الخاصة بالمدنيات البارزة ــ إذا نحينا جانبا تلك التى أسماها المدنيات « المجهضة » وتلك التى حدثت تطوراتها فى العالم الجديد ــ فإنه يوجد فى تلك القائمة خمس عشرة حضارة يمكن نسبتها إلى العالم القديم .

نصيب مصر منها واحدة . . . . . .

ونصيب الهند اثنتان . . . . . .

وللصين واحدة . . . . . .

وتتبقى إحــدى عشرة مدنيــة تقع فى المدار الجغرافى لأوروبا والشرق الأدنى .

وهذا العدد الزائد عن الحد الذى جعل إحدى عشرة مدنية من نصيب منطقةواحدة ـ يثير فينا العجب حتى نتبين أن كلها بالضرورة تعبيرات ومظاهر محلية أو قومية ، إما مرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، أو مشتقة بعضها من البعض الآخر .

وعملية التوالد الشديد هذه عن طريق التكاثر من الأجزاء الأولية تبدو لى كانعكاس بالغ الأهمية لحيوية مدنية تلك المنطقة ، ثم إنها فى نفس الوقت تبين الطريقة التى تسببت بها نظرتنا التقليدية إلى التاريخ فى تشويه مفهوم نمو المدنية بعرضها فى أشتات قومية .

إن المدنية ـ كما رأينا ـ لا تموت كما يموت الـكائن الحى .

وفى الحقيقة فإنه بين الأربع الحضارات الرئيسية فى العالم القديم احتفظت ثلاث منها بوجودهامنذ بدايتها إلى الوقت الحاضر ، وهى وإن كانت قدأصابها التعديل والتغيير بعامل الزمان والمكان والظروف إلا أنها استمرت موصولة البقاء .

وحيث إن لدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأن كل مدنيات الدنيا القديمة ترجع إلى أصل مشترك وأنها جميعا اقترضت بعضها من

البعض الآخر – فإذن يمكننا أن نعتبرها كمظاهرة متعددة ومختلفة ومتكاثرة ولكنها تراث واحد يتميز بالحيوية الجبارة والمثابرة .

فمنذ بداية ظهورها كطريقة مميزة للحياة فإن المدنية لم تتوقف عن الوجود فى مكان أو آخر .

ولعل روما تعتبر مثالا للطريقة التى تبقى بها المدنية حية ، وإن كانت فيما يبدو قد أصيبت بضربة قاضية . فعندما سقطت الامبراطورية الرومانية فى الغرب فإن حضارتها لم تصب بانهيار كلى عقب الانهيار السياسى وإنما استمرت فى الامبراطورية الشرقية .

وفى الوقت الذى انبثقت فيه مراكز المدنية الغربية كانت لا تزال ينبوعا حيا تنهل منه تلك المدنيات الوليدة . هذا إلى جانب الآثار غير المباشرة التى جاءت عن طريق العرب الذين نقلوا كثيرا من هذا التراث الثمين إلى نفس المستهلكين فى الغرب .

الأنماط فى المدنية

الأنماط فى المدنيـة

إذا كانت المدنية نفسها لا تمر بدورات عضوية تنتهى بالموت فهى إذن مازالت ظاهرة متغيرة تخلف وراءها مؤسسات منقرضة ووسائل آلية قديمة وأفـكارا نضب معينها .

وليس هناك مدنية ـ حتى إذا استمرت فى مكان واحـد كما حدث فى مصر والصين ـ تبقى بلا تغير عبر الزمان .

فلنلق نظرة على بعض المدنيات المألوفة لنا بدلا من تلك التى لا نعرف ماضيها إلا معرفة ناقصة من مخلفات و بقايا آثارها .

وعلى الرغم من أن الحياة المتمدينةفى انجلترا لم تبدأ إلا فى الأزمنة الرومانية فإن انجلترا كما نعرفها اليوم يرجع تاريخها إلى أيام وليام الفاتح .

فمن عام ١٠٦٦ إلى الآن توجد مرحلة تسعمائة سنة تقريبا . وفى أثناء تلك الفترة الطويلة من الزمان لم تتعرض انجلترا لغزوات من سكان أجنبيين أو مهاجمات وفتوح من ممالك تنافسها أو تقلبات فى مدنيتها الوطنية.ومع ذلك فقـد حدثت لها تغيرات من أكثر التغيرات عمقا وأثرا بعمليات وسبل من التغيير تركت فيها آثارا عميقة كما هى الحـال فى كل ثقـافة أخرى ومدنية أخرى .

واليوم نشهد فى انجلترا فى وقتنا المعاصر تغييرا آخر بحيث لو بعث انجليز القرن الثامن عشر وشاهدوا انجلترا اليوم لما صدقوا أعينهم ـ مثلهم فى ذلك تماما مثل الإنجليز القدامى (البريتونز) Britons بالقياس إلى القرن الثامن عشر .

فإذا قسمنا تلك الفترتين اللتين يفصلهما قرنان من الزمان وفصّلنا تلك الفترتين وميزناهما بالتغييرات الكثيرة التى حدثت فيهما فسنجد أن كلا منهما قد أصابه التغيير والتعديل بأقدار متساوية منذ أيام اليزابيث أو شوسر .

فلم تتغير طريقة الحياة برمتها فحسب ، ولكن حدثت تغييرات ثورية جوهرية فى المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصاد والعمارة والفن والموسيقى والأدب والعلم .

ومايطبق على إنجلترا فى هذا الصدد ينسحب على فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبلاد الأوروبية المختلفة مع اختلاف فى الدرجة .

فكلها تجلت فيها أنماط للتغيير والتعديل بلغت طبيعتها من العمق درجة جعلتنا نميز ونفرق بينها بالإشارة إليها بعبارات مثل العصر القوطى وعصر النهضة والعصر الحديث .

ومن السهل أن نتتبع الخطوات التى أدت من عصر إلى آخر وأفضت من

مرحلة لأخرى و بذلك نتثبت من عنصر الاستمرار فيها لأن الوثائق التاريخية مازالت طازجة ووافرة .

ولاأتحرج من القول بأن الفاصل الذى يفصل بيننا و بين الرومان ليس أكبر ، وربما يكون أقل من الفاصل الذى يفصل بيننا و بين أوروبى Europeans القرون الوسطى الذين هم أقرب إلينا زمانيا وقد ورثنا منهم بالفعل تقاليدنا فى تتابع موصول .

فعالم القرون الوسطى ـ عن طريق التغيرات التى حولته خطوة خطوة إلى العالم الحديث ـ انقرض وخبت ناره وأصبح بالنسبة لنا يمثل مدنية مختلفة عن مدنيتنا تمام الاختلاف . وفى تلك الأمثلة التى استقيناها من تاريخ أوروبا الحديث نستطيع أن نرى المدنية وهى تخضع تدريجيا لتعديلات وتغييرات ذات طابع فى غاية العمق ثم تغير فى داخلها باستمرار التقاليد الأوروبية القومية المختلفة .

وسلامة تلك العملية لاتتوقف كليا على عنصر الاستمرار السياسى أوالقومى كما يبدو لنا ذلك أحيانا .

فعندما تم غزو المدن الاغريقية وأصبحت بمرور الوقت جزءا من الامبراطورية الرومانية فإن المدنية الاغريقية لم تنته عندذلك الحد ، وإنما ظلت نابضة بالحياة محتفظة بقدر كاف من الحيوية بحيث أثرت فى روما تأثيرا عميقا

لمدة طويلة من الزمان وبحيث استمرت فى شرقى البحر المتوسط لقرون عديدة بعد ذلك مع حدوث تغيير تدريجى لها عندما غير المدار الذى ساندها ، والوعاء الذى احتواها ، والرحم التى حملتها صفته واتجاهه ومساره .

فالتغير إذن جزء متكامل من المدنية كما هو الشأن فى التنظيمات البسيطة للسلوك الإنسانى التى نميزها بالاشارة إليها بأنها ثقافات بدائية .

ومن الخطأ أن نفترض أن التغير مرتبط بالضرورة بدورة نمو يعقبه موت كما يحدث فى حياة الكائن الحى .

ومن الخطأ أيضا أن نفترض أن التغير يتضمن بالضرورة تقدما .

فالتقدم ـ بمعنى أنه ازدياد القدرة على الافادة من البيئة وفهمها ، وكذلك إنتاج سلوك يتميز بازدياد فى التركيب والتعقيد والتنوع ـ هذا المعنى للتقدم ـ بصفة عامة ـ كان دائما قرين المدنية فى أشواطها التى قطعتها والتى يمكننا تتبعها .

وكثير من اتجاهات وتعديلات وتغييرات الماضى لم تسر وفق هذا الخط من التقدم بالمعنى الذى أشرنا إليه وإنما كانت تمثل أنواعا من الملاءمة أو التحقيق والاكتمال لأنماط لا شأن لها بالتقدم ـ أكثر مما يعنيه مجرد الحركة ، إذ ليس مجرد الحركة يعنى بالضرورة اتجاها .

وعلى الرغم من المجلدات الضخمة التى كتبت عن ديناميكيات التغيير فى

المدنية فإنه موضوع لانستطيع أن ندعى ـ بعد ـ أننا نحيط به خبرا .

ولكى ندرك إلى أى حد تحيرنا ظاهرة التغير ، و إلى أى مدى يصل تعقيدها ، فلايوجد ماهوأحسن من دراسات البروفسور سوروكين Sorokin الرائعة التى تناول فيها بالتحليل والتوضيح والتمثيل بعض تفرعاتها .

فإذا كنتُ قد اقتصرتُ هنا على جانب واحد محدود من جوانب تلك القضية الكلية فالسبب فى ذلك أننى ليس عندى أمل فى أن أوفيها حقها فى خاتمة مقالة موجزة ، ولكن هناك سببا أهم من ذلك وهو أن لدى هدفا محدودا فى عقلى ؛ فالذى أبتغيه هو مجرد استنباط بعض التعميمات من أوجه وسمات وملامح معينة لعملية التغيير التى تبدو لى أنها تلقى ضوءا على طبيعة ونمو نظام مدنيتنا الغربية .

ويظهر أن العلماء والدارسين الذين تناولوا المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية بالتعليق والشرح والتحليل ـ لم يسلموا من التشويش والخلط فيما يتعلق بطبيعة تطور تلك المدنية .

والأوروبيون على وجه الأخص كانوا متناقضين فى موقفهم. ففى الوقت الذى ادعوا فيه أنهم مهتمون فوق كل شىء بما هو خاص بنا ومقصور علينا ومميز لقوميتنا إلا أنهم تناولوا بالانتقاد كل ماوجدوه عندنا منحرفا عن معاييرهم، فإذا نسج فنانونا وكتابنا على منوالهم اتهموهم بالتقليد .

ولعدم وجود شعراء تمثيليين لدينا مثل شكسبير أومؤلفين موسيقيين كلاسيكيين ـ أو رومانتكيين مثل موزار أوبيتهوفن، ولانعدام وجودرسامين عندنا آخذين بأساليب وتقاليد عصر النهضة . . . .

كل تلك المظاهر اعتبرها الأورو بيون نقصا فينا وعيبا يعيروننا به ودليلا على فشلنا فى الخلق والابتكار ، و بينة على عجزنا عن انتاج مدنية تتميز بحصيلة أولية لاثانوية وابتكارية لاتقليدية .

وكان من الممكن أن نمر بهذا الموقف مر الكرام ولانعيره اهتماما أونحمله على محمل الجد ـ لولا أن نقادنا أنفسهم تأثروا به أيضا . ولولا أن فنانينا وكتابنا ومؤلفى موسيقانا قد خضعوا له إلى حد ما .

حقا لقد عانى الأمريكيون فى الماضى تلك الظاهرة بحيث أدت إلى نوع من انقسام الشخصية ، فإذا فعلوا مايلزم على كل الفنانين الابتكاريين أن يفعلوه ــ وهو انتهاج تقليد ــ أواتباع أسلوب وجدوا أنفسهم مقيدين باتباع التقليد الوحيد الذى عرفوه والأسلوب الوحيد الذى وجدوه أمامهم ، ألاوهو تقليد أورو با وأساوب أورو با .

وكانت النتيجة عادة ــ كما هو الشأن فى كل عملية تقليد أونسج على منوال قائم ــ مجرد نُسَخ باهتة من نماذج أورو بية .

فأمرسون مثلا نسج على منوال كارليل ومذهب ماوراء الطبيعة الألمانى ، وكذلك الأمر بالقياس إلى لونجفلو فإنه غالبا ماحاول اعادة خلق نماذج أوروبية عتيقة فى قصصه الشعرية وأشعاره القصصية ولقد هبطت قيمة كل منهما بسبب هذا الاشتقاق .

ولكن ماذا كان نصيب ثورو ؟ ؟

لقد كان ثورو على عكس كل من أمرسون ولونجفلو فلم يلجأ إلى الاشتقاق من مصادر أورو بية و إنما اختط لنفسه أسلوبا وفلسفة قومية محلية .

والنتيجة أن أمره أغفل وألقى به فى زوايا النسيان .

ولست أعنى أن ثورو أوحتى هويتمان لم يظفرا بتقدير واعتراف الجمهور لمجرد كونهما لم ينسجا على منوال النماذج الأورو بية . فأصالة هذين الرجلين ، وماتسما به من قدرة ابتكارية ، كان من الممكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة من عدم التقدير أوالاعتراف عند معاصريهما فى ثقافة أخرى . ولكن الجمهور الأمريكى الذى تقيد بالنماذج الأوروبية واتخذها معيارا ومقياسا فى حكمه كان يطمئن إلى تلك النسخ الأمريكية المقلدة من الأوروبية ويرتاح إليها ويسهل عليه استيعابها وتذوقها .

وفى الواقع لم يظفر الإنتاج الأمريكى ذو الطابع والأسلوب القومى الأصيل

فى الفن والأدب بالقبول والتأييد إلا بعد رسوخ ذلك التقليد والطابع والأسلوب القومى رسوخا قويا .

والذى حدث أن فشلنا فى تذوق وتقدير المدنية الأمريكية راجع إلى أننا عندما نحاول غرس تقليد ونقله من منطقة الأخرى ، أننا نتجاهل حدوث عملية معينة يتضمنها ذلك الغرس وذلك النقل ، ثم إن النقاد الذين يفتقرون إلى الوعى بتلك الظاهرة فى عملية النقل يخطئون و يسيئون الحكم فى آن واحد .

وأول ما ينبغى تقريره فى هذا الصدد أن زهرة الحياة المتمدينة زهرة رقيقة حساسة و يجب ألا نتوقع لها أن تظل كذلك بعد عملية النقل دون أن يصيبها ضرر أو تلف ؛ فهى خبرة لها ثمنها .

وفى حالة الولايات المتحدة الأمريكية فإن عملية النقل تمت من أوروبا إلى البرية ، والمدنية ـ لكى تزدهر وتنتعش إذا قدر لها البقاء ـ تحتاج إلى مستويات من التطور الاقتصادى والاجتماعى لم تكن موجودة فى أمريكا .

لذلك لم يكن من الغريب أو مما يثير الدهشة أن أمريكا لم تنجب أعمالا مبتكرة أو مؤلفات أو فنوناً تتميز بالقدرة الخلاقة وتستحق الذكر

فى القرنين الأولين من تعميرها ، ولكن الشىء الجدير بالتنويه لم يكن الكيفية التى تم بها هذا الإنتاج ولكن إلى أى حد استطاعت تلك القدرة الفعلية وذلك النوع من النشاط الفكرى الراقى ـ و إن كان جافا ـ أن يزدهرا ويفلحا فى نيوانجلند حيث كانت الحياة مازالت تمضى على نسق بدائى نسبيًا .

وعلى الرغم من أنه حتى فى مستهل تلك الأيام كان يوجد بعض الرجال المثقفين مبعثرين فى تلك المستعمرات ، وكان التعليم ضئيلا نحيلا قليلا فى أماكن قليلة ، فإن إقامة أساس لمدنية أصيلة لم يأخذ مجراه أو يصبح له شكل قائم إلا عندما بدأت البلاد والمدن فى النشوء على الساحل المحاذى للأطلنطى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكانت فى بدايتها دعائم واهية لتطور مدنية حقة ، ولكن بازدياد ازدهارها ورواجها أصبحت مراكز هامة لاستيراد الأفكار من أوروبا .

وفى تلك المراكز المتحضرة الآخذة فى النمو استطاع الرسامون والنقاشون أن يجدوا عملا وافرا يمكنهم من فتح مراسم ووجدت الكتب سوقا لتصريفها واستطاعت فرق التمثيل أن تجمع جمهورا من المشاهدين .

و بدأ المستعمرون يجمعون ثروة مكنتهم من إنشاء مبان هائلة .

وحيث إن كل تلك الأوجه من النشاط والتغيير الإنسانى لم تكن نابعة من أمريكا أو أصيلة فيها بحيث يستطيع المستعمرون الإفادة منها واستعمالها فإنهم لجأوا إلى الاستيراد ، والاقتراض بكل جوارحهم وبشهية جامحة من أوروبا . وهذه هى الطريقة التى تنتشر بها المدنية وهى فى الحقيقة الطريقة الوحيدة ، فالتقليد هو الخطوة الأولى فى إقامة مركز جديد للمدنية .

وهذه هى المرحلة التى تتركز فيها كبرياء القوم وكرامتهم ، ليس فى الاختلاف بقدر الإمكان عن الموطن الأصلى ، ولكن فى التشابه بقدر الإمكان معه .

فما كان يعتبر من مظاهر الذوق الحديث فى لندن أو باريس أصبح آليا وبلا جدال هو المستوى والذوق المتفق عليه فى المستعمرات ، وهذا ما حدث لأثينا وباريس ولندن عندما مرت بنفس المرحلة إبان باكورة نشأتها كمراكز للمدنية .

ولكن عندما انبثقت أول محاولة ابتكارية خلاقة تستند إلى دعائم فى بدء القرن التاسع عشر لجأ كتابنا وفنانونا إلى نقل ونسخ النماذج الأوروبية نقلا ونسخا صريحين وبدون شعور بالعار أو الحرج .

وفكرة التزامهم بالخلق والابتكار فى نطاق أسلوب وطنى أمريكى ربما لم تخطر ببالهم .

وقد أنتجوا بكل سعادة غامرة Columbiads على غرار ال Dunciads الانجليزية. أما فنانونا Copleys & wests فقد ذهبوا إلى المدرسة فى انجلترا وظلوا فيها فنانين بريطانيين من الدرجة الثانية .

وقد اقترن بتلك الظاهرة أن أمريكا كانت تقترض من أوربا مبتدئة من النقطة التى انتهت إليها أوربا .

ويبدو أن عملية الاقتراض تتضمن دائما نوعا من التفريع فى آخر مرحلة من مراحل نمط التطور . أو بعبارة أخرى فإن شعراءنا كانوا ينسجون على منوال بوب وليس شكسبير Shakespeare ، ومؤلفو موسيقانا عندما بدأت أمريكا تنجبهم فى أواخر القرن التاسع عشر لم يقلدوا موزار لأنهم وصلوا متأخرين جدا بالنسبة له ولكنهم نسجوا على منوالى براهمز وتشايكوفسكى إذ وجدوا فى نماذجهما تعبيرا أكثر ملاءمة لهم وتناسبا وانسجاما معهم .

وهكذا فإننا لم نبدأ بأثر رجعى وكانت نقطة ابتدائنا فى كل أوجه نشاطنا هى المرحلة التى انتهت إليها أوربا ، ومعنى ذلك أننا لم نمر بالمراحل الأولية التى مرت بها أوربا .

وعند حاول لونجفلو فى قصيدته « هيواثا » Hiawatha أن يعيد خلق

صيغ وأشكال الملحمة الشعرية التى هجرها الأدباء الأوربيون منذ وقت طويل، كان رجعيا فى تلك الحركة ، وكان عمله متسما بطابع الافتعال والتصنع ، ولذلك لم يلق صدى ولا تأييدا ولا ترحيبا، ف «هيواثا » Hiawatha لم تكن عملا أصيلا قط ، ولا شيئا أكثر مواتا كأسلوب انقضى زمنه سواء فى القبعات أو فى الأدب ــ وقد نحمل الأمور فوق ماتطيق إذا قلنا إن السبب فى أننا لم ننجب شكسبيرا آخر أو مارلو هو أننا وصلنا متأخرين جدا ولكن من المحقق أن السبب هو أن أحدا من شعرائنا لم يحاول أن يكون مثلهما .

ويعزى إلى هذا السبب نفسه أننا لم نخلق فى بلادنا أبدا ــ بأصالة ــ أنماطا وأنواعا معينة من الأدب ، والموسيقى والفن التى وجدت فى أوروبا .

وإن كانت هناك استثناءات ظاهرة من تلك القاعدة أهمها هى محاولاتنا لإعادة خلق واحياء الأساليب القوطيةوالرومانسكية Romanseque واليونانية ونماذج أخرى من المبانى الأوروبية بعد انتهاء عصرها الذهبى بوقت طويل .

ولكن فن العمارة ــ أكثر من أى فن آخر ــ يجنح إلى أن يكون مختلط الأساليب ويميل إلى تقليد الماضى والنسج على منواله .

ثم إن مبانينا ومنشآتنا لم تكن بالضرورة مختلفة عما كانت عليه

المبانى والمنشآت الأوربية المعاصرة وعما اتبعته حيال أساليب العمارة .

وتطور مدنية جديدة منوط بشروط تتوقف على طبيعة أنماط التغير ولقد لفت كرويبر Kroeber النظر إلى اتجاه التغيير وميله إلى التقدم فى نمط محدود واضح حتى تنفد امكانياته ، وبناء على ذلك فإننا نلاحظ أن الذين يقومون بعمليات الخلق والابتكار فى مرحلة اكتمل تطورها أو مرحلة متأخرة من مراحل نمط التغيير فإنهم يجنحون إلى تلافى الأساليب والأشكال المميزة لمرحلة سابقة ، ولهذا فإن رسامينا وفنانينا اليوم نادرا مايحاولون أن يرسموا لوحات على غرار روبنز Rubens أو واتو Watteau فهم ملزمون على نحو ما بتحقيق وا كتمال نمط للتغيير .

ولهذا السبب فإن شكل المدنية الجديدة يتأثر تأثرا عميقا أول الأمر بمرحلة تطور المدنية الحاضرة القائمة التى ينبثق منها .

وعلى الرغم من أن التقليد كان بالضرورة ظاهرة ميزت تتلمذ أمريكا على أوربا إلا أن تعديل المؤسسات الأوربية والثقافة التى جلبها المستعمرون هنا بدأ تقريبا على الفور..

وهذا ــ كقاعدة عامة ــ هو مايحدث عندما تحمل الثقافات إلى بيئة جديدة فإذا كانت عملية النقل والغرس متبوعة بعملية عزل من الموطن

الأصلى فالذى نتوقعه أن عملية التعديل تتجلى بسرعة وتعبر عن نفسها على نحو أسرع مما لو استمرت الاتصالات بين الجديد والقديم .

وفى حالة الولايات المتحدة الأمريكية استمرت تلك الاتصالات فى تنوعها وتكرارها فى الازدياد بدلا من أن تقل مما أدى إلى إبقاء مدنيتنا فى إطار عقلى استعمارى حتى بعد أن تحقق الاستقلال السياسى، ولكن باستمرار التعديل والتأقلم و بروز وتعميق الخطوط الرئيسية للتغير فى اللغة والمؤسسات الاجتماعية والقيم والسلوك وغيرها فإنها تؤثر حتما فى الإنتاج الخلاق والحصيلة الابتكارية للبلاد .

ومن تلك العملية ينتج مزيج جديد ومرحلة مختلفة إلى حد بعيد عن المدنية الأصلية التى تولدت عنها المدنية الجديدة .

فمن الصعب علينا أن نتنبأ بالوقت الذى سيتم فيه حدوث ذلك ، لأن ذلك يتوقف على أشياء كثيرة غير ملموسة وغير محسوسة .

ولكن البيِّنة على دخولنا فى تلك المرحلة واضحة ومتجلية بطرق شتى. وسواء أكانت ستؤدى إلى ظاهرة كبرى لها خصائصها ومميزاتها أم ستبقى مجرد وجه محلى للمدنية الغربية فهذا أمر فوق مقدور تنبؤنا .

ولن نكون واقعيين إذا توقعنا نوعا جديدا من المدنية بصفة كلية فى

الولايات المتحدة بلاضريب ولامثيل ولانظير فى أى مكان آخر .

فنحن ـ أولا وقبل كل شيء وارثو المدنية الغربية ـ مثلنافى ذلك كمثل الأوروبيين سواء بسواء وجذورنا المشتركة ستظل تمدنا بعلاقة عائلية ، والبلاد الأوروبية المختلفة ـ على الرغم مما بينها من اختلاف ـ تشترك فى الكثير وبالاضافة إلى ذلك فإن من طبيعة الاتصال بين المدنيات حتى عندما نقول على أساس المساواة التقريبية ، فإنها تقترض من بعضها البعض الآخر .

وهذا الانتشار والشيوع يؤدى إلى اعادة توزيع الأفكار الجديدة وإلى التقليل من الفوارق المتطرفة .

لقد انفسح مجال الاتصال بين أوروبا وأمريكا ولم يعد مقصورا على مجرد طريق يمضى ذهابا وإيابا فى الاتجاهين بين القارتين .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد انتهت من مرحلة مجرد التقليد وأصبحت تسهم بنصيبها فى المدنية الغربية .

هذا الكتاب

الثقافة في علم دراسة الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) هى أسلوب الحياة فى المجتمع ، وهى التى جعلت المجتمع البشرى يمتاز عن الجماعات الحيوانية منذ بدأ الانسان حياته على هـذا الكوكب ، فالعادات والتقاليد والأفكار التى يتشاركها أفراد المجتمع ، والتجارب التى يمر بها الانسان فتستقر فى أعماقه ، كلها أشـياء يتسم بها البشر واستمدها المجتمع البشرى عبر التاريخ جيلا بعد جيل ، وتناقلتها الأعقاب المتوالية كتراث اجتماعى .

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التى يتسم بها ويعيش فيها ، كما أن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها ، ومقدارا معينا من القـدرة على التغلغل فى المجتمع الذى تعمل فيه بحيث تتفاوت درجات هـذا التغلغل .

والكتاب الذى بين أيدينا الآن يتناول الثقافة بهذا المعنى الذى أوجزناه .

من تصـدير

الدكتور عبد الرحمن زكى



الثمن ٢٠ قرشا

١٩٦١